الفصل الثاني

بيئة الريف المصري

البيئة هي كل ما يحيط بالانسان من مناظر طبيعية ومجتمعات بشرية ونظم اجتماعية وعلاقات شخصية فردية تقوم بينه وبين الافراد حوله ! هذه هي البيئة كما يفهمها معظم العلماء . ونميل نحن إلى مطها أكثر من هذا فنظن ان بعض حالات الفرد النفسية أيضا هي جزء من بيئته ! لأن استجابة الفرد لبعض تلك المؤثرات قد تكون في بعض الأحيان جزءا من البيئة . وليس يعني هذا أكثر من ان الاستجابة في بعض الاحوال قد تصير مؤثراً يفعل في نفس الفرد

ولتوضيح ذلك نقول ان الطبيعة في آخر الامر هي الشيء الذي ينفعل ويتأثر مما يحيط به . وليس ينفي هذا انها تفعل وتؤثر . ولكن عملها الاساسي الاولى هو ان تنفعل وتتأثر . واما البيئة فهي المؤثر الذي يدفع الكائن إلى الحركة والنشاط والسعي فالتعامل متواصل بين الاثنين والاخذ والعطاء مستمر متلاحق . فمتى كان الامر كذلك نظن انه من الممكن ان نزعم بأن استجابة الكائن لمؤثر ما . قد تصير فيما بعد عاملا من البيئة التي تحيط به لانها تفعل فيه كما يفعل أي مؤثر آخر في بعض الاحوال . والامثلة على ذلك كثيرة متعددة نذكر منها واحداً

يعتور بعض الناس شعور بالحقارة والضعة Inferiority Complex فتجد ان الواحد من هذا الصنف من الناس يشعر ويوقن في نفسه انه أقل قدراً وأحقر شأناً ممن عداه . فالناس كلهم أقوى منه وأحسن وأرفع قدراً وأعلى شأناً . كل الناس يستطيعون ان يفعلوا هذا الشيء وذاك اما هو فيعجز دون ما يفعلون . تراه يسير في المجتمع مثقلا بالشعور ان جميع الناس ينظرون اليه ويعجبون لحقارته ولقلة شأنه بينهم . يظن ان كل الناس تشمخ بانوفها إذ تراه وتصعر خدودها وتدير ظهورها له عند قدومه

قد يكون منشأ هذا الشعور هو الطبيعة في الاصل . ولكن مهما كان منشأه

وأصله فانه قد صار الجو الذى يعيش فيه هذا الانسان . فهو عامل فى البيئة التى يحيا فيها وقد صبغ البيئة كلها بهذه الصبغة. فالناس فى نظره غير الناس فى نظر غيره . وبينما الجبال توحى اليه بالخوف والشعور بالعجز وعدم الرغبة فى الاقتراب منها تراها توحى إلى انسان آخر بغير هذا . توحى اليه بحب المجازفة والمخاطرة والغرام بالانتصار والتغلب على الصعاب . فليس يجدى الزعم فى هذه الحالة اذن ان الانسان من طبيعته الخوف وانه خلق هكذا وان غيره خلق لايهاب شيئا على الاطلاق : لان المؤثرات التى تحيط بهما تختلف اختلافا كبيراً . فهناك عاملان متناقضان على الاقل وهما شعور كل منهما والجو النفسانى الذى يعيش فيه كلاهما

لهذا نرى ان ولدين — وان شئنا الايغال فى التشابه نقول توأمين — يختلفان فى ميولها ومشاعرهما وعناصر النفس الكثيرة وان كانا يعيشان تحت سقف واحد وفى كنف أب واحد وحجر أم واحدة وفى مدرسة واحدة . يختلفان كل الاختلاف لان هناك فى زاوية النفس أمراً قد حدد لكل منهما السبيل الذى يسير فيه . وذلك الامر قد يكون نوع من الاستجابات التى عملها احدهما وان هذه الاستجابات بدورها أخذت تؤثر فى مجرى حياته الى ان حولته الى جهة غير تلك التى يسير اليها أخوه

نخرج من هـذا بأن البيئة أمر كثير التعقيد والالتواء وانها ليست من السهولة والبساطة بحيث يمكن ان نعرفها بجملة واحدة أو انها من الامور التى يسهل تحديد عواملها . ومتى كان الامر كذلك نظن انه من المتعذر ان نحدد بيئة الولد المصرى على التحقيق . لأنه ان كان من الامور الميسورة ان نشرح النظم التى يعيش فيها وميول الناس حوله وبعض قواعد العرف التى يخضع لها وما يحيط به من المظاهر الطبيعية كالوديان والجبال والانهار وما يلابس حياته من عوامل الاجتماع والاقتصاد إلا اننا نعجز عن ان ندرك استجابات الولد المصرى كلها تجاه هذه المؤثرات ثم أثر هذه الاستجابات فى نفسه . وليس يخفى انه فى هذه الحالة يجب ان نعتبر كل فرد حالة خاصة قائمة بذاتها

البيئة الطبيعية

بعد هذه المقدمة البسيطة عن البيئة عامة فى معناها وحدودها نعود الى البيئة

المصرية اجمالا نرجع الى حيث ينبت الولد المصرى ويترعرع ويشب ويشيب. وليس يخفى ان الاقليم الجغرافى له من الاثر فى حياة الناس عامة شأن كبير. ونحن من الذين يؤمنون ان البيئة لها شأن وأى شأن فى تكوين الناس. ولكننا لانستطيع ان نحدد مقدار أثرها فيهم وكذلك لايستطيع غيرنا فى الوقت الحاضر ان يحدد بطريقة علمية قياسية مقدار مايرجع الى طبيعة الانسان أو الى بيئته

ولكن هذا لاينفى ماللبيئة من الاثر فى الناس. ونحن نزمع ان نتناول منها مالاشك فى أثره فى حياتهم. سنحاول ان نترك منها مالم يثبت بطريقة قاطعة ان له أثراً ظاهراً فى الحياة. وبمعنى آخر اننا سنحاول ان نترك الفروض والاحتمالات والظنون وسنقصر مجهوداتنا فقط على ماثبت بطريقة قاطعة انه يؤثر فى مجرى الحياة

وأول مايجبنا فى هذا البحث هو الاقليم الجغرافى. أى مصر الطبيعية برمالها وصحاريها وجبالها ووديانها وحقولها ومزارعها والاثر الذى تتركه هذه جميعها فى نفوس المصريين عامة والآمال والامانى التى توحيها اليهم والاتجاهات الفكرية والميول التى تولدها فيهم وبعض عناصر الاخلاق التى تتكون فيهم من مجرد وجودهم فى مثل هذه البيئة والتعامل معها أخذاً وإعطاء

بلادنا مسطحة مستقيمة لاتكثر فيها الجبال العالية المكسوة بالثلج أو الغابات والخضرة. نيلها يسير بهوادة وتؤدة من غير صخب أو تدفق. يشقها النيل شقين مستطيلين من غيرعرض. يستطيع الواقف على شاطئه ان يرى ببصره حدودها من الشرق والغرب من غير عناء ومن غير الاستعانة بالنظارات المكبرة. يستطيع ان يلم بالارض المأهولة من بلاده من غير كبير عناء. ويستطيع ان يقطعها عرضاً فى بعض اليوم اذا أراد. وبعد ان يفرغ من هذا لايجد أمامه إلا رمالا تتلوها رمال الى مالانهاية. وصحارى تعقبها صحارى لاتحبب فى التجوال والاستطلاع

يشعر المصرى انه يعرف بلاده ووطنه لانه يراه أمامه بالعين المجردة. كل شىء مفتوح أمامه فلا يوجد أمامه الا مايرى. ثم لاشىء الا رمال. تشعره بيئته الطبيعية ان ليس شىء مستور يستطيع الكشف عنه. ولا تغريه بمجهول يريد اقتحامه وتعرف سره. تقول هذه هى الحدود وما بعدها ليس يهم فى شىء. يستطيع

ان يوغل فى الصحراء قليلا فيسير على وتيرة واحدة فى أرض مبسوطة أمامه لاعشب هناك يحبب اليه المسير ولا ماء يجعل السير مأموناً . ثم انه ليست له مصلحة مادية أو نفسية فى الأيغال فى الصحارى فيقفل راجعاً وقد ارتوت فيه حاسة الاستطلاع وشبعت فلا تعود تطلب مزيداً

مصر هى بلاد الطبيعة الهادئة الوادعة المسالمة . شمسها مشرقة صيفاً وشتاء . ليس فيها من العواصف والاعصار والبروق والرعود مايجعل الحياة قلقة قليلا أو كثيراً . وبعبارة أخرى لاتعمل الطبيعة فيها على استفزاز القوى الكامنة فى النفس من احتياط وحيلة ومجالدة . فبيئتها لاتلحف على الانسان بالمطاليب حتى ينشط ويفعل أو يهرب ويحتمى أو يواجه الطبيعة فى ثبات وشجاعة . لم يوجد انسان فيها أمام شىء من الطبيعة القوية الحادة المزعجة . لم يشعر انسان من أهلها ان الطبيعة تتحداه وتعنيه وتقصد الى اختبار جلده وصبره فى الأوقات الحرجة

نقصد ان الطبيعة أو الجو أو الطقس يغرى بالدعة والراحة والسير على وتيرة واحدة من غير تغير أوتقلب . فكل مايحيط بالمصرى يدعوه إلى الطمأنينة والراحة والثقة الغير المحدودة بالقوى الكونية الغير المنظورة . هو يثق ويوقن ان الأرض لن تميدتحت قدميه ولن تزلزل زلزالها وتخرج أثقالها . فهو مطمئن ووادع عالما ان غده لن يختلف عن أمسه فى شىء كثير . ستشرق الشمس وتهب الريح فى هوادة ولين أو فى عنف قليل أقرب للهزل منه للجد وان المنازل لن تتصدع أو تتهدم ، وبالاختصار ان الطبيعة لن تغضب عليه فتجعله يحتال للنجاة بالحياة

وتنعكس هذه الظواهر الطبيعية بالطبع فى نفس المصرى فتجعله كالحمل وداعة ودعة وقلة اهتمام . تفسره الطبيعة على ان يكون وادعا هادئاً يميل إلى الراحة والاستسلام للأقدار . وهذا هو الواقع فان المصريين شعب مسالم هادىء . لا بل أكثر من مسالم وهادىء . لأننا كشعب نميل إلى ان تنتقص حقوقنا ونرفض ان نقاوم أو نعتدى . أو بعبارة أخرى أهون على الأفراد فينا ان يكونوا مغلوبين على أمرهم من ان يكافحوا ويقاوموا ويركبوا المركب الخشن

ونحن كشعب لسنا مغرمين بالطبيعة كبعض الشعوب الأخرى . وذلك لأنه ليس

فى الطبيعة حولنا مايغرينا بها ويحببها الينا . تنقصنا الغابات الكثيفة التى نسعى اليها ونسكن فيها ونرتاح اليها فى أوقات فراغنا وأيام أعيادنا . لست تجد فى بلادنا كما تجد فى البلاد الأخرى ان الناس يخرجون جماعات جماعات بزادهم وخيامهم وأدواتهم ليعيشوا مع الطبيعة حيناً من الدهر بعيدين عن العمران والمدن يحتطبون ويطهون طعامهم بأيديهم ويقومون على خدمة أنفسهم واخوانهم . وحتى الأجانب بيننا الذين درجوا على هذا النوع من الحياة حيناً فى بلادهم لايجدون فى مصر مايحبب فى الطبيعة وما يغريهم بالاقبال عليها

وحال الجبال فى بلادنا كحال غيرها من العوامل الطبيعية . ان هى إلا تلال صغيرة وأكوام من الرمال والصخور والاحجار تنفر الانسان والحيوان والطير أن يقربوها فليست تغرى انساناً منا ان يتسلقها ويعلوها ويمكث فوقها أياماً أو حتى ساعات . ليست تدعونا إلى الاقتراب منها واقتحامها . لاتستفزنا الى اقتحام المخاطر والتغلب على الصعوبات لأنها فى الواقع لاتثيب من يقهرها براحة أو منظر طبيعى جميل . لانه بعد ان يصل إلى القمة ماذا يفعل الانسان هناك ؟ ليس له إلا ان يقفل راجعا بأوفر سرعة قبل ان تحرقه الشمس فلن يجد هنالك بحيرة يجلس إلى شاطئها أو أشجارا يتظلل بها

ومحصل القول فى هذا ان البيئة الطبيعية للولد المصرى ليست أحسن البيئات لنموه فى الجسم والنفس . ليست تغريه بالخروج الى الخلاء حيث يقوى جسمه وتشتد سواعده . أو الى حيث يناضل البيئة فيقهرها أو تقهره . ليست تشجعه على اقتحام الصعاب وتنمى عوامل القوة والرجولة فيه . لايعود يجد نفسه مضطراً لان يقوم بمطاليب حياته بنفسه وللجماعة التى معه لانه لايخرج فى جماعات فى الخلاء ويحتطب ويقطع الاشجار ويطهى الطعام وينصب الخيام ويجلب الماء وما شاكل هذه الامور التى تنمى فيه الاعتماد على النفس ومعاونة الجماعة . وبالاختصار ان الطبيعة فى بلادنا ليست من عوامل بناء الاخلاق كما هى الحال فى البلاد التى تنمو فيها الغابات والاحراج وتكسى فيها الجبال بالثلوج أو بالاشجار وحيث يخرج الناس الى الطبيعة ليروحوا عن نفوسهم ويغيروا من طرق معيشتهم الى زمن محدود

البيئة الاجتماعية

ليس لنا ان نطيل فى الواقع فى وصف البيئة الطبيعية والاتكاء على نقائصها أو فضائلها لانا لن نستطيع ان نغير فى الامر كثيراً . ليس لنا ان ننسب الى هـذه البيئة كل نقائصنا النفسية لاننا نستطيع فى الواقع ان نستعيض عن هذا بما نفعله نحن حتى نجعل مجال الاخلاق أصلح مما هو الآن

ان الغالبية العظمى من سكان هذه البلاد فلاحون يرعون الارض ويستنبتونها ثمراتها . فحياتنا ورفاهيتنا وثقافتنا جميعاً تستتبع حالة الارض التى نفلح ونوع المحاصيل التى نزرع . فكل مافى مصر مصدره الفلاح الذى يلازم الارض ويوقف جهوده عليها ويخدمها بمالا يجاريه فيه فلاح على وجه الارض . ان فلاحنا مخلص صبور وقنوع . مخلص لأنه يفلح الارض حتى وان لم ينله من ثمراتها مايسد به رمقه ورمق عياله . وصبور على العمل لحوح فيه عنيد لايكل ولايستكثر ساعات عمله . ثم انه قنوع إلى أقصى حدود القناعة . قنوع بشكل عجيب لانه لو كان نصيبه هذا يقع لغيره من فلاحى الامم الاخرى لكان لهم مع حكوماتهم شأن غير هذا الشأن ولكانت الحكومات تسقط وتقوم لان الفلاحين يرضون أو لايرضون عنها

وهذا الفلاح ـ وحاله كما ذكرنا ـ لم يجد الالتفات الكافى من حكوماتنا المتعاقبة . ليس هذا تدخلا فى السياسة . ولا هو اتهام لحكومة بعينها . وانما هو تقرير للواقع الملموس الذى لايكاد يختلف فيه اثنان . لانه يظهر ان نظام الحكم فى هذا البلد من قديم الزمان لم يعمل لخير الفلاح عن قصد وروية . أو بالحرى لم تكن الحكومات المتعاقبة فى المائة السنة الماضية مثلا تعمل لخير الفلاح المصرى . أو بعبارة أصح لخير الغالبية القاهرة من سكان هذا البلد

فنى بلد تكون نسبة المتعلمين فيه ثمانية أو مايقرب من ثمانية فى المائة لايمكن ان يفترض فيه ان الحكومة كانت تعمل لخير أهله . فالبلد فى الواقع كان فريسة للجهل المخيم على عقول الفلاحين . ولسنا نستطيع ان نتكلم عن أثر هذه الظاهرة لاننا لوفعلنا لما قلنا شيئا سوى ان العلم مفيد فى كذا وكذا وان الجهل مضر فى كيت وكيت . ومثل هذا قمين بان يكون موضوعا انشائياً لطلبة المدارس الابتدائية . ولذلك

فاننا لانريد الدخول فى مثل هذا البحث لاننا نزعم ان القارىء يتفق معنا انه كان يكون لخير هذه الامة على التحقيق ان يتعلم الفلاح فيها . ويطلع على ماجريات الامور ويقرأ الجرائد والمجلات والنشرات التى تقع فى يده

فالجهل مثلا من العوامل الرئيسية فى إفساد الصحة العامة وجعل الحياة فى القرية أمراً لا يطاق من الوجهة الصحية . لأن الفلاح المسكين كان يقع بين براثن الشعوذة والتدجيل الطبى كلما الم به مرض طارىء . وأظن أن القارىء لا يطالبنا بالبرهان على صحة هذا الزعم لأنه يكفى للبرهنة عليه أن يذهب المتشكك ويعيش بضعة أيام مع الفلاحين ليتحقق بنفسه صحة هذا القول . فكم من مرة تترك الام القذى يتجمع فى عين ولدها الموبوءة زعماً منها بأن هذا القذى ليس شيئا سوى مكمدات طبيعية للعين . لقد مرت بالكاتب حالة من أروع الحالات . لقد رأى طفلة فى الرابعة من عمرها تصاب برمد بسيط وتفقد بصرها فى ظرف اربعة أيام لأن طب الحكيم لم يصادف هوى عند الام ولم يستطع أن يقاوم الخرافات والشعوذة التى كانت تملأ عقلها

ثم أن الجهل والامراض كانا عاملين اساسيين فى إضعاف مقدرة الفلاح الاقتصادية أو نستطيع أن نقول أن الجهل والامراض والفقر كانت عوامل تدعم بعضها البعض الى أن انزلت الفلاح الى هذه المنزلة الوضيعة من العيش . فيصح أن نزعم أن اصل الداء فى كل منها على حدته وفيها كلها مجتمعة . إذ لا يخفى أن كلا منها تساعد على خلق الظروف الملائمة للاخرى . فالفلاح فقير لأنه مريض ومريض لانه فقير والاثنان جميعاً لانه جاهل غير متعلم

ان حظ الفلاح ضئيل وبيئته التى يعيش فيها من اقسى البيئات على الناس . لأن جميع العوامل تألبت عليه لتجعل حياته مما لا يطاق وأنها فى مجموعها تنزل الى مستوى وضيع لا يليق بالناس ولا يلائم الحياة المثمرة . وكيف يمكن أن تكون مثمرة وهى واقعة تحت عبء الجهل والمرض والفقر . هذه الثلاثة الأدواء التى تكفى للقضاء عليها ؟

فى مثل هذه البيئة ينبت الولد المصرى وفيها ينشأ ويترعرع الى أن يبلغ طور

الرجولة . ولسنا فى حاجة لأن نبين أن هذه البيئة ليست صالحة لنمو الطفل جسميا وروحيا واجتماعياً وعقلياً . وليست هى تربة صالحة للاخلاق . فى الواقع انها فى حاجة شديدة الى الاصلاح والتعهد حتى ينال الولد قسطه من النمو المتناسب

اوقات الفراغ

ما يفعله الناس فى أوقات فراغهم هو النشاط الحر لهؤلاء الناس . وبالطبع يشترك فى هذا الضرب من النشاط كل الافراد العاديين الذين لهم من الذكاء والصحة البدنية والاجتماعية ما يجعلهم افراداً عاديين لهم ما لباقى الناس وعليهم ما على غيرهم . وهذه الظاهرة الاجتماعية التى يحيا فيها الافراد وينشطون هى الاخرى جزء لا يتجزأ من بيئتهم التى يخضعون لمؤثراتها

يشب الولد المصرى فيجد أمامه ظواهر خاصة بهذه البيئة . يجد أن البالغين يقضون أوقات فراغهم بشكل معلوم وبطريقة مخصوصة . فهو ينتظر بطبيعة الحال أن ينسج على منوالهم عند ما يبلغ سنهم لانه لا يستقيم أن يخالف الفرد العادى أحكام العرف وينفر من البيئة التى يقع تحت نفوذها . وفى الواقع لا يشذ الفرد عن احكام البيئة الا اذ كان أحد اثنين . أما انه مجنون أو أقل من المستوى العادى للذكاء فى هذا المجتمع . أما هذا وأما انه نابغة يفوق فى مستواه العقلى عن الجماعة التى يتصل بها . احد هذين النوعين من الناس لا يخضع للبيئة كل الخضوع أو بعضه . وأحد هذين لا تستقيم حياته مع ما درج عليه الناس فى هذا الصقع بذاته . وأما غير هذين . أما اولئك الذين يكون مستوى ذكائهم متناسباً مع مستوى الذكاء العادى للاغلبية فى هذه الجماعة ، أما هؤلاء الذين ذكرنا فانهم يدرجون بطبيعة الاشياء على احكام البيئة التى ينتمون اليها

وأحكام البيئة فى بلادنا هى هذه : فى المدن يقضى الافندية الذين هم الطبقة المتوسطة فى هذه البلاد أوقات فراغهم جلوساً فى المقاهى يحتسون القهوة أو غيرها ويدخنون ويتحدثون أو يلعبون الورق والنرد وما أشبه . يخرج الاطفال من مدارسهم المختلفة ويمرون بتلك المقاهى فيجدونها مكتظة بالافندية ليس فيها موضع لقدم . ليس هذا فقط ولكنهم يملأون فراغ الشارع الذى تسمح القوانين لهم بملئه . ثم يذهب الولد الى البيت ولا يسأل احداً عن ابيه أو اخوته الكبار لانه

يعلم من دون حاجة الى السؤال انهم فى بعض المقاهى كباقى الناس الذين هم فى مستواهم الاقتصادى والاجتماعى . ليس للطفل العادى أن يفكر فى هذه الظاهرة الاجتماعية . ليس له أن ينتقدها أو يحللها . ليس له الا أن يتقبلها على علاتها كشىء عادى لا محل فيه للبحث أو اعمال الفكر . يدرج الولد على هذا الى أن ينال قسطه المقدر له من التعليم ويدخل فى عداد المشتغلين المتكسبين لمعايشهم . بعد هذا يندمج فى هذه الالوف من الناس ويحتل مكانه من المقهى ويضع ساقا على ساق . ثم تسير حياته على هذا المنوال

وكان الحال يكون غير هذه الحال لو درج الطفل تحت بيئة غير هذه . كان الشأن مع الولد يكون غير ذلك فيما لو نشأ فوجد أن الشبان ينتظمون فى نواد للسباحة والالعاب الرياضية وجماعات من هواة الراديو وطوابع البريد ومنتديات للطيران والتجذيف والجمعيات العلمية والادبية والفنية . كان يقضى أوقات فراغه فى غير المقاهى لو كانت الغالبية من طبقته لا ترتاد المقاهى . هو يفعل الآن ما يفعلون وسوف يغير من حياته عندما يغيرون . لأن حكمه يجب أن يكون حكمهم فى جميع الحالات ولن يكون الا كذلك اللهم الا اذا كان مستواه ينقص أو يزيد عن مستوى الكتلة المتوسطة من الجماعة التى ينشأ فيها

اوقات الفراغ عند الاطفال

فى هذا الفصل سوف ابحث فى أوقات فراغ الطلبة فقط واترك ماعداهم . وذلك لان غيرهم أو بعبارة أخرى أولاد الفلاحين لا يحيون حياة عادية طبيعية . فحياتهم على حالتها الراهنة يجب أن تعتبر شاذة . وكيف لا تكون كذلك وهم مطالبون بأن يكدحوا لارزاقهم وأرزاق عائلاتهم حالما يستطيعون أن يستووا على ظهور دوابهم أو يعدوا خلفها . ثم أن حالتهم شاذة أو غير طبيعية لأن نظام التعليم عندنا لا يتسع لهم فلا مدارس تأويهم ولا معلمين يقومون عليهم . فحالتهم شاذة إذن لأنهم ليسوا فى المدارس ويجب أن يعتبروا كذلك الى أن تقوم الحكومة والامة بالواجب لهم . الى أن يحين ذلك الوقت يجب أن يقيم الكتاب والخطباء الدنيا ويقعدوها حتى تتغير هذه الحياة الشاذة

أما الطلبة فحالتهم تختلف عن تلك من وجوه كثيرة وان كانت ما تزال غير ملائمة للحياة العادية فى البلاد المتمدينة الاخرى من وجوه أخرى كثيرة . فمواد التدريس لا حصر لها . وهى متنوعة بشكل يدل على أن القائمين بالتعليم فى هذه البلاد آلوا على انفسهم ان يجعلوا من الطفل كشكولا وليس انسانا مستكمل النماء من جميع نواحى الحياة الاجتماعية والصحية والاخلاقية . لا تزال المدرسة تصر على أن تقدم للطفل من كل علم ثمرة فجة لا يستطيع معها الولد ان يميز هل هو يتناول هذا النوع من الغذاء العقلى لانه يستطيبه اولانه دواء يجب أن يتناوله لانه مجبر على تناوله . ثم تتصرف المدرسة كانها تزعم أن كل شىء يتفق مع استعداد كل فرد من غير تمييز أو تفريق . فحساب المثلثات مثلا ينفع هذا وذاك والاخر . ثم إن قدراً معلوماً من حساب المثلثات لا يزيد ولا ينقص يجب أن يصب بالملعقة فى حلقوم كل من ولج باب المدرسة . واذا لم يستسغه الطفل ولم يلتذه واذا لم يدل بالامتحان على انه يفعل ذلك ، يطرد من المدرسة طرداً

ولذلك فأنه ليس للطلبة فى الواقع أوقات فراغ يقضونها فى السعى وراء تحقيق ميولهم المتباينة . فلا يستطيعون ان يكونوا هواة فى كثير من أنواع النشاط الحر كجمع الزهور وتحنيط الطيور وتربية الدواجن أو جمع الحشرات إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر . ليس لهم أوقات فراغ لأنهم من الصباح الباكر الى المساء أو إلى الساعة الرابعة مشغولون بالمدرسة وغرف التدريس وما يستتبع ذلك من ذهاب وأياب وفسح وغذاء . فالى الساعة الرابعة مثلا ليس لهم شىء من الفراغ يقضونه فيما يريدون ويحبون . وبعد هذا يرتاحون قليلا أو يتنفسون أو يركضون فى الشوارع ويلعبون بعض الساعة . ثم يرجعون الى الدرس والمطالعة الى وقت النوم . فيومهم كله ما خلا ساعة أو بعض الساعة وقف على الدرس والمدرسة وما يتصل بهما من أنواع النشاط المحدود غير الحر . بعد هذا التوزيع ليوم الولد لا يصح ان يزعم أحد أن له أوقات فراغ بشكل مجد منظم

لقد قيدت حكومات العالم المتمدين أوقات العمل وحددتها بساعات معلومة لا يجب ان تتعداها . وما تزال ساعات العمل فى العالم آخذة فى النقص والقلة . ثم أن

الحكومة المصرية شرعت فعلا فى توجيه عنايتها الى هذه المسألة بقصد ترسم السبل الصحيحة للدفاع عن كيان الأجير المسكين

كل هـذا حدث وكل هـذا يحدث وأما حياة الطلبة وساعات عملهم فليس من يلتفت اليها فى بلادنا بقصد تقليل وطأتها على الصغار . فالمدرسة تصر على ان تستوفى حقها من وقت الأولاد . لا بل أكثر من حقها بكثير . ويصر الآباء على ان يروا لأولادهم حتى يعطوا المدرسة أكثر من ذلك وحتى يلتفتوا لدروسهم ويتركوا ما عداها من كل أنواع النشاط . لقد تعاون العرف وتقدير الجماعة على الولد حتى يعطى للمدرسة والدروس كل أوقاته . وكلما جار الولد على أوقات فراغه وتمتعاته ، وكلما أضاف الاوقات المسلوبة من هذا النشاط الى أوقات المدرسة . نقول كلما فعل هذا كان أقرب لان يرضى والديه ومدرسيه والعرف . ولكن الواقع أن الثمن الذى يدفعه لهذا الرضاء مرهق للطفل ومفوت عليه فرص الحياة السعيدة

حدثنى دكتور صديق قائلا إنه يعود فتى عليلا متهدم البنيان . يعوده ويرعاه ويقوم على صحته . ولكن الطفل ما يزال عاجزاً عن التماسك والنهوض والأخذ بأسباب الحياة العادية . والسبب فى ذلك يقول الطبيب أن الوالد يصر على ان يكون ابنه من أوائل فرقته فى المدرسة . ولهذه الغاية يعاونه فى الدرس ويستخدم له مدرسين خصوصيين ويقسط له وقته على المواد الدراسية ويغفل من حسابه الولد ذاته . وانتهى الطبيب بأن قال ان هذا الولد بائس وسوف يدفع ثمن هـذا الدرس من حياته المقبلة أكثر مما يدفع الآن يوما بيوم . ويعرف الكاتب ولداً فى الثالثة عشرة من عمره وكان من المتقدمين لامتحان الكفاءة . هذا الطفل كان يستغرق كل أوقات النهار فى الدرس . ولما كانت ساعات النهار محدودة كان يقفى عليها بساعات الليل الى الساعة الثانية والثالثة صباحا

أظن أنه ليس من المعقول بعد هذا ان نتحدث عن ساعات فراغ الولد فى بلادنا . وأظنه معقولا أن نزعم أنه ليس للطفل فى بلادنا ساعات فراغ بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح . لأن فراغه هو من القلة والضآلة بحيث يكاد يكون امراً مهملا عند الحساب

وما يصح أن نسميه بساعات الفراغ تسامحاً وتجوزاً مهمل فى الواقع ونفس الأمر . هو كذلك لأنه متقطع . فليس للأطفال كتلة من الوقت قائمة بذاتها تتسع لنشاط مثمر بعيداً عن الكتب والمذاكرة . فللولد عشر دقائق هنا وربع ساعة هناك وخمس دقائق هنالك . فلا يعود الولد مستطيعاً أن يجمع هذه الدقائق الى بعضها حتى يصرفها فى نوع من النشاط مستديم . لأنه يحتاج فى الواقع علاوة على هذه الدقائق المبعثرة الى كمية من الوقت متصلة حتى يصرفها فيما يهوى أن يصرفها فيه من أنواع التمتعات البريئة التى تعود عليه بالخير

ثم أن هذا الوقت ليس منظما . بمعنى أنه ينصرف فيما لا يعلم الآباء أو المربون . ينصرف والسلام أى انه يمر بالولد أو يمر فيه الولد الى ان يصل الى ساعات الدرس والمذاكرة . والوقت المهمل على هذه الطريقة أو الغير المنظم تنظيما مجدياً لا يعدو ان يكون مضيعاً على غير جدوى . لا بل كثيراً ما تكون اضراره بالغة

وتنظيم الفراغ يلزمه حتما ان يدرس الآباء والمربون ميول أطفالهم واتجاهاتهم الفكرية . ومتى درسوها وبحثوها بحثاً ودرساً عميقاً يستطيعون ان يساعدوا الاطفال لأن يصرفوها فيما يعود عليهم وعلى دروسهم وصحتهم وأخلاقهم بالفائدة . ولنضرب على ذلك مثلا بالالعاب . فاللعب ميل فطرى عند الاطفال . ميل فطرى أوجدته الطبيعة فيهم حتى ينموا به أجسامهم ويتعهدوا ملكاتهم . ثم أنه فى الواقع باب يلج منه الطفل الى حياة اجتماعية مستكملة . فمن منا سمع فى هذه البلاد أن جمعيات تكونت لتنظيم العاب الاولاد ؟ من منا رأى جمعيات تجعل مجهوداتها وقفاً على تجهيز الامكنة والمربين للأولاد أيا كانوا حتى يصرفوا جهودهم ونشاطهم فى العاب منتظمة ؟ ومن منا سمع أن الجامعة أو مدرسة المعلمين العليا تجرى الاختبارات العلمية فى الاطفال بتنظيم العابهم ؟ اللهم لاشىء من هذا مطلقاً . والحال أنهما لو فعلتا لكان أمامهما حقل خصيب لاجراء التجارب المتنوعة فى نفسية الاطفال . ولكان الاطفال انفسهم يستفيدون من تنظيم الالعاب لهم

وليس هذا فقط ولكن الآباء انفسهم لا يحاولون بحال من الاحوال أن ينظموا أوقات الفراغ لأولادهم . وهذا التنظيم سهل ميسور لكل واحد منهم . وذلك

بأن يشتركوا مع أولادهم فى هذا الضرب من النشاط . كأن يلعبوا معهم أو يخرجوا معهم الى رحلات بعيدة تستغرق بعض الوقت أو يكونوا معهم هواة لأمر من الامور كالسباحة أو التجذيف أو الموسيقى أو غير هذه

ولكن تنظيم أوقات الفراغ للأطفال خارج دائرة العائلة يستلزم حتما وجود الاخصائيين فى طبائع الاطفال وفى توجيه نشاطهم الى بعض الوجهات المعلومة . يستلزم أن يكون للأطفال نواد خاصة لهم . ويستلزم أن يكون المنوطون بهذه النوادى من المتعلمين تعليما راقياً ومن المطلعين على حركة علم التربية الحديث واتجاهه وتطوره . وبلادنا فقيرة من هذه المعاهد ومن هؤلاء الناس . فالنوادى الموجودة فعلا لا تخرج فى معظم الحالات عن أن تكون منشآت تجارية الغرض منها الكسب والاستغلال وليس التربية والتهذيب . والقائمون عليها تجار يسعون وراء أرزاقهم . حقاً أن بعض هذه النوادى كما هى على علاتها تفيد وتنفع الأطفال ولكنها تحتاج الى كثير من العناية والاهتمام حتى تصير إداة صالحة لنمو الأولاد نمواً متناسباً

وعلاوة على ان هذه النوادى إنما جعلت للتجارة فانها تجمع الاطفال الصغار الى البالغين الكبار . وهذا فيه ما فيه من الأضرار الخلقية الكبيرة . لأن الأولاد يجب أن يكونوا منعزلين عن البالغين الغرباء فى العابهم المختلفة

وبالاختصار فأننا نجد ان وقت فراغ البالغين لايستثمر خير استثمار لفائدتهم من كل النواحى . لا بل هو مضر لهم فى الواقع من وجوه كثيرة . ثم أنه ليس لطلبة المدارس فى بلادنا أوقات فراغ يعتد بها . وأن هذا الفراغ القليل يحتاج الى التنظيم والتوجيه حتى يثمر فى الاطفال . وان هذا التنظيم يحتاج الى دراسات كثيرة فى طبائع الاولاد والى اخصائيين فى التربية يوقفون جهودهم على هذا الضرب من الاعمال . وكل هذه الشروط غير متوفرة فى بلادنا الا فى القليل النادر

أثر البيئة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لكل سبب اجتماعى نتيجة اقتصادية . ولكل سبب اقتصادى نتيجة اجتماعية أيضاً . ذلك لان هذين العاملين يرجعان الى بعضهما سبباً ونتيجة . ويؤثران احدهما فى الآخر كما يتأثر منه . ولذلك يصعب جداً تمييز هذا من ذاك بحيث يقفان مستقلين .

وبما انه ليس الغرض الاساسى من هذه الرسالة اقتصادياً أو اجتماعياً فلسنا مضطرين لفصلهما وتحديد مفعول كل منهما اضطراراً . ولذلك سوف نأخذ مثلا بالعامل الاقتصادى على انه سبب لنتيجة اجتماعية . وسوف نعتبر هذه بدورها سبباً لنتيجة اقتصادية . وهكذا دواليك . ومع ذلك فسوف نحرص كل الحرص على ان لايستهوينا هذا البحث الى مناح بعيدة عن موضوعنا الأصلى . اذ انه يكفى فى هـذا المقام ان نلم الماماً ببعض العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى لها اتصال مباشر بالاخلاق

قلنا ان الحكومات المتعاقبة لم تكن تهتم كثيراً بخير الفلاح المسكين . فالمـال كان يحبس عن المشروعات العامة على العموم وعن التعليم على الخصوص . ولذلك فأن جمهور المصريين أو غالبية السكان العظمى يعيشون الآن كما كانوا يعيشون فى القرون الماضية . حقاً ان الرى لم يكن حظه كحظ المرافق الاخرى قلة وضآلة . ولسنا نزمع ان نبحث فى الدوافع لهذا لأنه مهما كانت الدوافع له فاننا نشكر كل العوامل التى أخذت بيد الرى فأوصلته الى حالة لابأس بها فى مجموعها وان كان مجال التحسين لايزال مفتوحا على مصراعيه . ولكن للأسف لم يكن هذا حظ كل المرافق الأخرى من اقتصادية واجتماعية وصحية . فالامراض مثلا التى كانت تأخذ الفلاحين أخذ جبار مقتدر قد ترك أمرها للفلاح ليصرعها او تصرعه فى هذه الحرب العوان بين القزم والمارد

وليست تخفى النتائج الاقتصادية لهذه الحالة ـ حالة حبس الاموال عن المنافع العامة ـ فان قدرة الامة على الانتاج لم تتقدم الى درجة يؤبه لها . ويكفى للدلالة على صحة هذا القول أن الفلاح المصرى ليس له الآن موارد للكسب الا عن سبيل زراعة القطن لا غير . ولو تصادف كما حـدث مراراً وتكراراً أن ضؤلت غلة القطن سنة من السنين لاخذت برقبة الامة ضائقة مالية تكاد فى كل مرة أن توردها حتفها المالى وتقوض نظامها الاجتماعى من أساسه

وفى جماعة مثل هذه متروكة للامراض تهد أبدان أفرادها هداً ليس يرجى ان يكون لها حظ من المظاهر الاجتماعية الصحيحة . وكيف يكون لها مظاهر اجتماعية

سليمة وهى مكونة من أفراد سقماء معلولين ؟ وعلى أسقامهم وأمراضهم هذه تضاف ضرورات الحياة القصوى ؟ والفرد منهم فى حالته المحزنة هذه مضطر لأن يكدح من مطلع النهار أو قبل مطلع النهار الى مغيب الشمس أو بعد ذلك مع زوجه وأولاده الرضيع منهم والفطيم تحت وقدة الشمس الكاوية . وكل ذلك دون ان يحصل على ما يعيش به عيشا هادئا وادعاً نوعاً ما . الحق اننا نكون متعسفين لو تطلبنا مظاهر الحياة الاجتماعية السليمة فى جماعة هذه حال أفرادها . ولقد تركت هـذه الظاهرة وشأنها فلم يبـذل أى مجـهود جـدى فى ترقية الفلاح من الوجهة الأقتصـادية أو الاجتماعية . والنتيجة لذلك أن بقى الفلاح لا يتذوق للراحة طعما . دع عنك الرياضة واللهو البرىء والمظاهر الاجتماعية الاخرى الضرورية له

وثمة ايضا الضرائب التى يقع عبئها كله تقريباً على عاتق الفلاح المسكين . أما باقى السكان الذين حبتهم الظروف والصدف العمياء فحصلوا على قليـل من مبادىء العلوم يستعينون بها على رفع مستواهم الاقتصادى فوق مستواه بكثير — هؤلاء الذين يحيون حياة ينظر اليها الفلاح كأنها ليس بعدها مطمع لطامع . أو كأنها شكل من أشكال الحياة فى جنات الخلد — هؤلاء لا يدفعون لخزانة الدولة كثيراً أو قليلا . لابل دعنا من هؤلاء فقد تزعم ولك الحق فى ذلك أن امثالهم فى البلاد الاخرى لايدفعون من الضرائب شيئاً . لأن مواردهم تعتبر بحق الحد الأدنى للحياة فى بيئة مثل بيئتنا . نقول دعك من أمثال هؤلاء وخذ أرباب الأموال والأعمال والمتاجر الكبيرة . فهؤلاء معفون من الضرائب أيضاً . حقاً ان لذلك مبرراً من الامتيازات الأجنبية التى تقف عقبة كأداء فى سبيل اصلاح من هـذا القبيل . لأن فرض الضرائب على مثل هذه الأموال يكون فى آخر الأمر واقعاً عبئه كله على الماليين المصريين دون الأجانب . وفى هذا مافيه من الغبن فضلاعن المحاربة الضمنية لرءوس الأموال المصرية

نقول ان هذا أيضاً حق . ولـكن من الجهة الأخرى لاتزال الحقيقة السابقة قائمة . ولا يزال الفلاح مهضوم الحقوق لأن الضرائب تقع على الأملاك الثابتة . وهذه فى يدالفلاح بمقادير قليلة جداً لاتتعدى القراريط والأفدنة التى تعد على أصابع اليد

الواحدة . وعلى هذا فهو وحده دون سواه يقوم بمطالب الدولة المالية كلها . واما صاحب الملايين فيستطيع ان يضاعفها ويكدسها تكديساً ويتناولها بالايمان والشمائل دون ان يطالب بشيء بشرط واحد . وهو ان لايكون له شأن بالعقارات الثابتة

ومعنى كل هذا فى آخر الأمر ؟ معناه الذى ليس له معنى سواه هو ان الفلاح يعاقب على بقائه أميناً لقراريطه القلائل . أو بعبارة أخرى فانه يجازى جزاء سنمار لقيامه بمطاليب من يتحكمون فيه ويريدونه على ان لايفعل غير ماهو فاعل من بدء التاريخ

والفلاح يرى ويحس ويشعر . ثم انه له منطق وعقل وتفكير . ويستطيع ان يرتب للامور نتائجها . ويرد النتائج الى أسبابها . فهو يزن الأمور بالبديهة أو بالالهام أو بحكم الظروف ان شئت . وهو بطبيعة الوجود يوازن بين حالته وحالة من يفضلونه مالياً واجتماعياً . ويرى الى هؤلاء فيجد ان أرباب الوظائف هم أحسن منه حالا واهدأ بالا . فليس من يستقطع مما يملكون أو يطمع فيما يكسبون . وان رزقهم فى حرز حريز ليس من يفكر فى تحميله من اعباء مالية الدولة مايجب ان يحمل . ينظر الفلاح الى كل هذا فتأخذ ميوله تتجه الى الوظائف والمرتبات وتأخذ الوظائف التى لاتتعدى مرتباتها الثلاثة أو الأربعة جنيهات تستهويه وتخلب لبه وتغريه لأن يترك قراريطه وما عليها من الضرائب . اما اذا لم تتفتح أمامه الأبواب لمثل هذه الأعمال فانه يلهم أولاده ويلقى فى قرارات نفوسهم عبادة الوظائف والهيام بها هياماً ليس وراءه من مزيد

وهذا الهيام وتلك العبادة لهما بدورهما نتائجهما المحتومة ـ فمنها على سبيل التمثيل لا الحصر ـ ان النشء راض نفسه على التواكل والضعة والذلة والمسكنة . اذليس له مطمع فى مغالبة صروف الزمان ومجالدتها جلاد الابطال الذين ترغب نفوسهم فى الجهاد للحياة . لم يكن للنشء حظ من هذه القوة . قوة النفس الحارة الشجاعة الأبية التى يستهويها الصراع فتزج بنفسها فيه لان طبيعتها تستلذ هذه المجالدة وهذا الصراع

لم يكن للشباب المصرى حظ من هذا فاندفعوا وراء الحياة الهينة اللينة المضمونة . لم يكن لهم هيام بمجالدة الحوادث فاخذوا يتقونها بالفرار من وجهها والالتجاء الى حياة وادعة فى كنف وظائف الحكومة . فلم يكن للولد من مطمع سوى الجلوس الى مكتب فى احدى دور الحكومة ليعيش فى كنفها ومن موردها متقيا غائلة الجوع ومتجنبا التقلقل والاضطراب وعدم قرار الحالة التى هى جميعاً من مستلزمات الصراع والكفاح . فى مثل هذه الوظائف وجد الشاب المصرى مايبعد عنه شبح الجوع فى الحاضر وغائلته عند ماتتقدم به السن الى الشيخوخة . ثم فى مثلها أيضاً وجد كثيراً من أوقات الفراغ التى يستطيع ان يقضيها حسب اهوائه من بريئة ومريبة

ويجب ان لاننسى ان الواحد منا وجد فى طفولته ان مايصبو اليه والداه هو حياة وادعة غير شاقة وغير محفوفة بالجهاد من كل صوب . وان مايصبوان اليه أيضاً هو الراحة من عناء العمل — أى ان انحطاط مستوى الحياة عند عائلاتنا وضغط الظروف عليها لتواصل ليلها بنهارها فى طلب القوت الضرورى فقط كانا من أهم العوامل التى حببت الى النشء العيش المضمون الثابت المؤكد والراحة من العمل بعض اليوم . وليس ذلك بغريب ان يحدث مثل هذين الاتجاهين فى النشء لان حالة كحالتنا هذه هى التى أوحت الى بعض القدماء ان جنات الخلد أو السماء ليست شيئاً سوى راحة وعيش مضمون وفراغ

ومن هـذه الظاهرة استمد التعليم أغراضه وغاياته . أى ان التعليم استلهم الظروف لتحدد له أغراضه وغاياته فالهمته انها يجب ان تكون فى اعداد النشء لحياة وادعة مضمونة بعيدة عن النضال والجهاد . أو بعبارة أوضح ان غاية التعليم فى مصر يجب ان تكون الوصول الى الوظائف الحكومية . وإذ يسأل الاولاد فى مواضيعهم الانشائية عن اغراضه يجيبون ان أهمها جميعاً ان يحصل الانسان على وظيفة . ولا لوم عليهم فى ذلك لان كل العوامل تألبت عليهم لتسوق ميولهم إلى هذا الاتجاه دون غيره . وإلا فهل ينتظر من الاولاد ان ينصبوا لانفسهم أغراضاً وغايات غير تلك التى تحددها لهم الظروف والبيئة والتعليم ؟

فالجو الاجتماعى ونظام التعليم فى بلادنا اتجها بجملتهما هذا الاتجاه دون ان يفكر أحد من المسئولين عن الامور، أو دون ان تفكر القوة الحاكمة اياً كانت فى تحويلهما عن هذا المجرى . لم يحاول احد فيما نعلم ان يوجد جواً بخلاف هـذا كأنه ليس ثمة جو من الاجواء يصلح للبيئة المصريه . وقد كان اللورد كرومر شاعراً بهذه الظاهرة دون ان يحاول معالجة عواملها . واليك مايقول فى كتابه (مصر الحديثة) : « ان الغالبية العظمى من الطبقتين العالية والمتوسطة تعيش من وظائف الحكومة » وفى الحق ان جماعة لاتكون طبقاتها العالية والمتوسطة سوى كتبة دواوين لايجب ان تترك وشأنها . فان مجتمعاً كهذا مريض وتجب مداواته بكل الوسائل . ولكن دواء لتلك الحالة الاجتماعية الخطيرة لم يفكر فيه أحد . ويظن الانسان ان موقف اللورد كرومر هذا هو الذى دعا الجرائد المصرية الى التصريح بأنه قال مرة ان غرض التعليم فى مصر ليس شيئاً آخر سوى اعداد الآلات للحكومة المصرية . وسواء أكانت هذه التهمة حقاً أم غير حق فان اتجاه الحوادث كان مما يساعد الكثيرين على هذه الظنون

ولهذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة نتيجة أخرى . وهى انها جعلت المصريين ينظرون باحتقار وازدراء الى كل الحرف الاخرى . فقد أتى عليهم وقت كانت كل حرفة أوعمل يتطلب من الفرد أى مجهود بدنى هى حرفة محتقرة دنيئة وكل مايطمع فيه الشاب هو ان يرزق بوظيفة نظيفة تبقى على نعومة يديه وجدة ملابسه . والحق ان بيئة كهذه تنسب الى ماليس له قيمة وقدر حقيقيان أقداراً وقيما مزيفة . نقول انه يصعب على بيئة كهذه ان تنتج أخلاقا وأغراضاً سامية

ثم ان لهذه الظاهرة نتيجة اقتصادية أيضاً . فهذا الاتجاه فى الميول حبس ايدياً ورءوساً كثيرة عن الانتاج الاقتصادى وحولها الى الخدمة . وهذه وان كانت ضرورية لابد وان يصحبها الانتاج أيضاً . وبالطبع فى جو كهذا تنعدم القدرة على الاستنباط والمغامرة . ثم فيه أيضاً لاتوجد التربة الصالحة للتعاون الاجتماعى والاقتصادى وفى كل مناحى الحياة . والتعاون فى رأى جميع العلماء هو بمثابة العمود الفقرى للاخلاق . وعلى هذا فالفردية البغيضة القبيحة المتنطعة تجد مرعى خصيباً فى بيئة كهذه

ومن ذلك أيضاً انها تذهب بحيوية الشباب ونشاطه الجسدى والعقلى والروحى. فنى الناحية العقلية يصير الشاب محدود التفكير. ليس لعقله مجال فسيح يصول فيه ويجول. يضيق به أفق الحيـاة وتتنزل أغراضها فيتغلب الجانب الحيوانى منه على جانب العقل أو الروح ان شئت ان تدعوها. والحيوانية تذهب بالخيال الى حيث لارجعة له

وعلاوة على ذلك أيضاً فانها تذهب بحيويته الطبيعية أوالجسدية. فبضعة سنين بين المحابر والاقلام وفى داخل جدران دور الحكومة تذهب بشباب الواحد منهم فيصير وكأنه أخلد على الدهر، ولما يتجاوز الاربعين أو الخمسين بعد. يصفر وجهه ويشحب. ويضمر جسمه ويهزل. أو تأخذه السمنة من وسطه وتخرج به عن حد التناسب والجمال. أو يمشى وتكاد جبهته تصل الى صدره فى انحنائها. وعلى الجملة تكاد تجزم عند ماتراه انه من جيل صار فى ذمة التاريخ. والحال انه الاسبق لذمة التاريخ من أنداده وأقرانه. وذلك لان الامراض تجد فى جسمه مرتعاً خصيباً. ولقد كان يقول لى صديق انه كلما قابل انساناً بهذا الوصف يكاد يجزم انه احد موظفى الحكومة

ان مجتمعاً كهذا عرضة لكل الامراض الاجتماعية والخلقية. وفى الحق لولا ان قيض الله لنا حركة سنة ١٩١٨. تلك الحركة السياسية التى حملت معها بذور الاخلاق لكنا قد فقدنا كل أمل فى حيوية البيئة المصرية. واذا لم يكن لسعدزغلول من فضل سوى انه غير نظرة الشعب للحياة وسوى ان حبب اليه المخاطرة والكفاح والجلاد. ان لم يكن سعد قد فعل غير هـذا لاستحق ان يكون بطلا من أبطال التاريخ لابل ولياً أو نبياً وطنياً كما يدعوه بعض المصريين الآن

لقد قلنا سابقاً ان العوامل الاجتماعية والاقتصادية متجاوبة الاصداء. ولذلك فان هذه الظاهرة تنيخ على صدر الامة والحكومة معا فى الوقت الحاضر. ويجب حلها على أحسن حال. اذ يجب ايجاد المجال للشباب ليكدح ويجالد صروف الزمان يجب ان تخلق لهم الظروف ليحصلوا على أرزاقهم خارج جدران الدواوين. وإلا كانت حياتنا القومية حلقة مفرغة من تواكل وخنوع واستسلام بغيض

الاسرة المصرية

هناك مرحلتان هامتان اذا جازهما الطفل آمناً سليما فقد لانعدو الصواب ان قلنا انه متى تساوت جميع العوامل الأخرى فان الطفل يشب رجلا على خلق عظيم . وهاتان المرحلتان هما البيت والمدرسة

ومتى قلنا البيت والمدرسة فقد قلنا كل مايلابس حياة الانسان الأولى من مولده الى سن العشرين أو ما يقرب من ذلك . لأن كل نشاط الانسان فى هذه السنين يكون فى البيت والمدرسة وما حولهما . وليس من ينكر أن النشاط هو أبو الخلق وموجده . وكما ينشط الانسان هكذا تكون أخلاقه . فاذا كان الأمر كذلك وهو مالا يخامرنا أدنى شك فيه ـــ كان كثير من نقائصنا أو فضائلنا كأمة وافراد يعود فى مجموعه الى البيت الذى ولدنا ونشأنا فيه والى المدرسة التى غذتنا فى صغرنا وكان فيها منصرفاً لجهودنا ونشاطنا

وأما الأسرة المصرية فهى فى حالة من السوء لا يزها فيه الا الشرق السحيق . لأن هذه الأسرة ينتابها من الفقر والمرض والجهل ماينتاب الأمة كلها . وحظ البيت أو الأسرة من هذا كحظ الفرد فى جماعته يحيق به بحكم الظروف مايحيق بالجماعة . وعلى هذا نستطيع أن نكرر هنا وفى هذا المقام ما قلنا عن البيئة العامة فى مجموعها . نستطيع أن نقول انها فقيرة وانها جاهلة وانها مريضة

ولكن الجماعة المصرية فى مجموعها شىء كبير معقد ضخم فلا يستطيع الولد ان يفهمه أو يتعامل معه . حقاً أن لهذه البيئة فى مجموعها اثر وأى اثر فى تكوين الأولاد ونموهم ولكن هذا الأثر يكاد يكون بطريقة غير مباشرة فى مجموعه . لأنه قد تكون الأمة جاهلة مثلا ولكن جهلها هذا لايصل الى الفرد فى أسرة بعينها فهو لايحسه ولا يراه ولا يتأثر به . لسنا ننكر أن الأمة تؤثر فى الطفل عن طريق تأثيرها فى عائلته وبيته مهما كان حظ هذه الأسرة من الرقى والمدنية . ولكنه قد لايحس هذا الأثر وقد لايكون الأثر كبيراً

وحال الأسرة يختلف عن هذا لأنها شىء محدود ونظام اجتماعى صغير يفهمه الطفل ويتعامل معه بالأخذ والعطاء وبالخدمة والتضحية . ولذلك فهو يتأثر منه

فى الحال تأثراً سريعاً قوياً لابل قدتقتله العائلة أو يقتله أحد أفرادها فى الواقع والحق . وأظن أن عند القراء من مثل هذه الاختبارات مالا يحتاجون معه الى مزيد . فكم من مرة تقتل الأم وليدها لأنها جاهلة . وكم من أطفال يفقدون أبصارهم وصحتهم ويعجزون ويشوهون

ولوتركنا هذه الأمور جانباً لنرى هل تستطيع العائلة فى حالتها الراهنة أن تسهر على أخلاق الأطفال لوجدنا أن الأمر فى هذه لايختلف عن باقى الأمور الاخرى مما له صلة بحياتهم كلها . لأن معالجة نفوس الأطفال فى الواقع أصعب بكثير من معالجة حياتهم المادية فالاولى تتطلب دراية أكثر ونفاذاً الى بواطن الأمور وعلماً بطبائع الناس وخبرة فى أصول التربية . وليس من ينكر أن مثل هذه الأمور المعنوية أكثر تعقيداً وابعد عن الأفهام العادية من الحياة المادية كقواعد الصحة وما أشبه

فالأسرة فى مصر لجهلها وفقرها وأمراضها من اردأ البيئات للاطفال . لا بل هى السبب الرئيسى فيما نجد حولنا من علل وأمراض جسدية وخلقية واجتماعية . وماذا ننتظر من طفل ربى على الطاعة والخضوع بالضرب واللكم والارهاب والتخويف . ماذا نتنظر من انسان نبت فى بيئة معادية له شديدة عليه ظالمة له . والكاتب يحس أن مثل هذه البيئة امر عادى فى بلادنا . ويعرف عائلة هنا فى القاهرة ربها من حملة شهادة الحقوق ومحام ويعرف ايضا أنه عندما يدخل هذا الوالد الى المنزل يختبىء الاطفال داخل الغرف ويخشون أن يسعلوا وهو موجود خصوصا عندما يكون غاضبا أو يشتم أنه غاضب

انا لاازعم أن جميع اطفالنا يعيشون فى بيوت مثل هذه ولا ازعم ان الآباء والامهات لا يشفقون على اطفالهم وبعبارة اخرى لا ازعم ان الشدة هى اللازمة الوحيدة او حتى الظاهرة فى بلادنا . بل كثيراً ما تكون الشفقة والرأفة أصل الداء . كثيراً ماتضر العائلات بالأطفال لأنها لا تعرف ان تكون حازمة شديدة عند اللزوم

وكل ما ارمى اليه الآن هو أن العائلة المصرية فى حالتها الراهنة ليست مجهزة بالوسائل العلمية التى تجعلها اداة صالحة لتربية الأطفال . فالجهل يجعل معظم وسائلها

فى التربية معيبة والشدة الصارمة عندها تقوم مقام الحزم . والتراخى والاهمال يقومان مقام المحبة والعطف

ومع كل هذا لايجب ان تقوم الأسرة أخلاق الأطفال بالشدة أوبغيرها فقط . لايجب ان تكون مكانا او معهدا للعلاج والتقويم والعقاب والتوبيخ . لأن لها عملا موجبا أيضا . عليها أن تجعل البيت مكانا للاجتماع والتمتعات البريئة . فيه ينتظر الأطفال بفارغ الصبر عودة ابيهم من عمله وفراغ أمهم من مشاغلها فى البيت ليجلسوا الى بعضهم يتسامرون ويتفكهون ويقص الأولاد على ابيهم وأمهم ما مر بهم من يومهم وما جرى فى المدرسة وفى الشارع . ويروى لهم الاب بعض الحوادث الصغيرة والحكايات اللذيذة التى تجعلهم يقبلون عليه بآذانهم ونفوسهم ويجلسون فى حجره يطلبون المزيد من هـذه الحكايات . ثم تقرأ لهم الام فى بعض الكتب ما حدث أويحدث لبعض الناس مما يلذ لهم الاطلاع عليه

كل هذه الأمور لاتوجد فى العائلة المصرية بوجه عام . حقا قد توجد بعض العائلات التى تمارس مثل هذه الأمور الاجتماعية كوحدة تربطها الروابط الكثيرة ولكن على العموم نستطيع ان نزعم بأن الغالبية العظمى من العائلات لاتهتم لمثل هذه الأمور . وكأنهم يزعمون أن مثل هذا الضرب من الحياة الاجتماعية مضيعة للوقت . وان عمل الاب أن يسهر مع أصدقائه واخوانه على القهوة أو فى الملاهى وان عمل الأم فى المطبخ وانه ليس للأطفال الا أن يجلسوا الى كتبهم ليدرسوا ثم يناموا . . الحق أن الحياة العائلية عندنا ناقصة وعليلة ويجب أن تتغير بشكل من الأشكال

أن العائلة المصرية تخسر كثيراً إذ لا تهتم بادخال المواقد fire place فى البيوت . لأن فائدة الموقد لاتقتصر على تدفئة المنزل وجعله مقبولا فى الشتاء . بل له أثر كبير أيضاً فى حياة الاسرة اجتماعياً . وفى الواقع هذا هو المكان الملائم لاجتماع العائلة كلها حيث يجلسون ليصطلوا بالنار ويحدقوا فيها ثم يتحدثون . وللنار أثر فى النفس لايدركه الا من يختبرها ويجلس اليها بين المعارف والأحباب . فهى تلعب دوراً هاماً فى حياة الغربيين يدركه من زار بلادهم وعاشرهم أو من

قرأ روايات ديكنز الكاتب الانجليزى التى لا تكاد تخلو رواية له من ذكر الموقد

ومن هذا يدرك القارىء أن الحياة العائلية عندنا مفككة كثيراً أو قليلا . لسنا نقصد بهذا أن الخلاف مستحكم بين أفرادها وان كان لايمنع أن يكون الحال كذلك — لسنا نقصدهذا . وانما نعنى أن الوحدة والتماسك والمصالح المشتركة والميول المتجانسة والعلاقات العميقة بين الأفراد ليست كما يجب أن تكون . ليست العائلة كفرقة رياضية تنشط وتتحرك وتفعل كوحدة . وانما نراها مكونة من افراد كل منهم منصرف الى شئونه . الأب فى مطالعة جرائده أو فى سهرته خارج الدار والام مكبة على أعمالها المنزلية والأولاد يعصرون ادمغتهم ليتفهموا مسائلهم المدرسية

وثمة ظاهرة أخرى للعائلة المصرية — ظاهرة تدل على ضعف الوحدة أو حاجتها الى التقوية والتعهد . ذلك أنها لا تخرج من المنزل الا كافراد يذهب كل منهم الى حال سبيله . يذهب الأب الى القهوة أو الى زيارة الأصدقاء وتخرج الأم منفردة لزيارة صاحبتها أو تبقى فى البيت ترعى شئون المنزل ويخرج الأطفال الى الشارع ليلعبوا . أو بعبارة أخرى أن العائلة تذهب الى ملاهيها كافراد وليس كعائلة . لايهتم الآب مثلا لأن يأخذ العائلة كلها الى دار الصور المتحركة أو الى أحد الملاهى أو الى المتنزهات العامة

وبعبارة أخرى لاتوجد بين افرادها رغبة أو ميل مشترك Common interest لأن لكل منهم ميوله التى يتبعها ورغائبه التى يقف وقته ومجهوداته على تحقيقها . ليس هذا فقط بل الظاهر ان الأب والأم لايهتمان ولايلقيان بالهما الى غرس بذور الميول المشتركة بين أفراد العائلة . فما يحبه هذا لايرغب فيه ذاك . وتترك المسألة عند هذا الحد . فلا يوجد من يحرص على أن ينظم العائلة كلها فى فرقة كفرق الألعاب الرياضية بحيث أنها تسعى وراء رغائبها كجماعة موحدة منظمة

الحق اننا نأسف لهذه الحالة جد الأسف لأنها علاوة على أنها تجعل الحياة فى العائلة مجردة نوعا ما من التمتعات البريئة والأوقات السعيدة التى تذهب بجزء من حدة الحياة ووطأتها فانها أيضا تغفل ناحية مهمة من التربية الاخلاقية للاطفال ،

تلك الناحية التى تساعد الفرد على ان يكون اجتماعيا قابلا للاندماج فى الجماعة من غير ان يعوقه شذوذ او اختلاف جدى مع الجماعة . لأن أهم ما يجعل حياتنا فى مستوى اقل من الامم الاخرى هى فرديتنا البغيضة التى تقف عقبة فى سبيل الحياة الاجتماعية بمظاهرها المختلفة . فالمصريون افراد قبل ان يكونوا جماعة او امة

المدرسة فى بلادنا

قلنا ان المدرسة هى الاخرى بيئة مهمة يصرف فيها الطفل الجزء الباقى من جهوده ونشاطه والقسم الأوفر من يومه فيها يتأثر الطفل كما يتأثر كل صبى من البيئة ويؤثر فيها أيضا كما يؤثر فيما يحيط به من الظواهر الاخرى

لقد مر بنا فى الفصل الأول أن خلق الأنسان ينشأ وينمو مادام يفعل وينشط . فعلى قدر ما ينشط هكذا يظل يبنى فى أخلاقه وهكذا يظل يتعهدها ويرعاها عن قصد أو غير قصد الى أن يفارق ميدان النشاط هذا أو الحياة بعبارة أخرى . وبمعنى آخر أن الخلق وليد السعى والنشاط

فاذا كان الامر كذلك ، وإذا كان من مستلزمات حياة الطفل أن يقضى الجزء الاكبر من حياته اليومية — حياة الحركة والسعى — فى المدرسة فقد لا نعدو الصواب إذا زعمنا أن أثر المدرسة فى الأخلاق بعيد وقوى وقد يتبع الطفل فى حياته كلها . قد تتحكم المدرسة فى حياة الطفل وقد تغير مجرى تلك الحياة وتوجهها الى وجهة لم تكن لتذهب فيها لولا المدرسة

لسنا بمستطيعين أن نحلل العوامل التى تفعل فى الأخلاق لسنا مستطيعين أن نحدد على التحقيق مقدار أثر البيت ومقدار أثر المدرسة ومقدار أثر باقى العوامل الأخرى . حقاً أننا نعجز عن ان نبين بطريقة حسابية — بالنسبة المئوية مثلا مقدار ما يخص كل هذه العوامل — أى البيت والمدرسة وما عدا هذين العاملين ولكننا نستطيع أن نقول أن أثرهما هو الغالب القاهر على العموم

من هذا يتضح أن أثر المدرسة فى حياة الطفل أقوى من كل شىء آخر سوى أثر البيت . ونستطيع أن نقول أن البيت والمدرسة يضعان الأسس ويبنيان سوية فى حياة الاطفال . فهما يتعاونان ويسيران جنبا الى جنب فى هذا الدور

لكن المدرسة فى بلادنا تخطىء فهم التربية على العموم أى أنها تخطىء فى معالجة الاطفال وخدمتهم والقيام عليهم . ثم تخطىء أيضا فى تعليمهم وتزويدهم بالمعلومات النافعة التى قد يستعملونها فى مستقبل حياتهم أو فى حاضرها . تخطىء فى هذين الامرين . وبعد ذلك ماذا يبقى من عمل المدرسة ؟اذا كانت تفشل فى تعليمهم ثم تفشل فى تربيتهم ماذا يكون عملهابعد ذلك ؟ الا يكون تعبها باطلا وجهودها هباء فى هباء

نحن لسنا متطيرين أو متشائمين . وليست نفوسنا مرة أو سوداوية ولكننا لانريد ان نغمض عيوننا عن ان نرى الحقائق حولنا . لانريد ان نحل معضلاتنا بتجاهلها أو باغفالها . فاذا كان الحكم على الامور لا يكون إلا بنتائجها العملية فقد يحق لنا ان نزعم ان المدرسة فى بلادنا فاشلة فى عملها وذلك من النتاج الذى أوجدت ومن الشبان الذين اصطنعت . لانه لو القينا نظرة على متخرجى مدارسنا فى مجموعها لايسعنا إلا ان نصدر هذا الحكم عليها

التعليم فى المدارس

فالتعليم عندنا هو عبارة عن مران آلى لايتعدى استظهار بعض المواد التى قد تنفع فى الحياة . وهذا مشكوك فيه . وقد لاتنفع وهو الارجح . والمران كما لايخفى هو عملية ميكانيكية لادخل للتفكير والخيال فيها . هوعبارة عن أخذ عضلات الجسم أو خلايا الجهاز العصبى بنظام محكم لايدرى الكائن له مبرراً معقولا أو غير معقول . فيصير الحى بازائه كالادات فى نظام آلى يدور متى دار النظام وينفعل لمجرد ان النظام كله أخذ ينشط . كالحصان يشد الى العربة ويراد ان يخطو بنظام مخصوص وضع له فيرفع قدمه هكذا ويختال فى مشيته بهذه الطريقة ويتمايل بتلك . يفعل الحصان المشدود الى العربة هكذا لا لانه يريد ان يختال أو يتمايل فى مشيته بل لان النظام الموضوع يريده على ان يفعل ذلك . يراد الحصان على هذا الوضع وبتلك الحالة ويحمل بكل الطرق على ان يتصرف هذا التصرف الى ان تصير حركاته آلية لارأى له فيها ولا فكر

والمدرسة تمرن الطفل Train him الى ان يعتاد جهازه العصبى على هذا المران

والى ان يصير هذا الضرب من النشاط لازمة من لوازم هـذا الجهاز .كل ذلك والطفل نفسه لايدرى لماذا يراد له ان يكون هكذا . لايدرى ولـكنه يفعل ماينتظر منه ان يفعله الى أن يصير جهازه العصبى اداة لهذا المران وذاك النظام . ومتى حذق هذا وصار كالآلة الصماء التى لاتخطى فى القيام بوظيفتها ظن انه تعلم وعلم

يتبين صدق هذا القول متى فحصنا عن الطريقة التى بها يتعلم الاطفال جدول الضرب مثلا . لنفحص عن هذه العملية حتى نرى طبيعتها هل هى عملية مران آلى بحت أم هى شىء آخر . نرى أنه عندما يصل الطفل الى هذا الدور يخبره الأستاذ ويجد هو فى الكتاب أن ٥ فى ٦ تساوى ٣٠ فيأخذ الطفل فى تدريب جهازه العصبى حتى يغرس فيه هذه الحقيقة ويظل يقول فى نفسه سراً وعلانية ويقول له الأستاذ ويعيد عليه الكتاب أن ٥ فى ٦ تساوى ٣٠ يجهد نفسه وجهازه العصبى حتى يتم الارتباط الوثيق بين هذه الأرقام الثلاثة أى خمسة وستة وثلاثين

لايستطيع انسان أن يزعم أن هذه عملية تتطلب أعمال الفكرة والروية أو استخدام التخيل والبحث . لايستطيع أى كان أن يزعم أن الولد يستنبط هذه الحقيقة استنباطاً من مقدماتها .لأن كل مايعمله هو أن يستعين بالزمن وبالتكرار الممل حتى تصير مرانا يدرج عليه . كلنا مررنا فى هذا الدور . وكلنا صرفنا أياما وليالى نبدى ونعيد فى مثل هذه الحقائق حتى صارت نظاماً قائماً فى جهازنا العصبى أو بعبارة أخرى مراناً آلياً كالحال فى مشية حصان العربة سواء بسواء

ولنأخذ مثلا آخر أروع فى باب المران وهو الطريقة التى بها يتعلم الأطفال عندنا الحروف الأبجدية . ليست هذه العملية فى المدارس الامرانا بحتاً . يوضع الكتاب فى يد الطفل ويقول له المعلم هذه هى « ا » وتلك هى « ب » والأخرى « ج » ادرس هذا واحفظه ثم كرره أمامى . أما ماهى هذه الالف وتلك الباء وهذه الجيم فالطفل لايدرى . وكل ما يدريه هو أنه يسلط جهازه العصبى على هذه العملية الى أن تصير نظاماً فيه أى الى أن يتم الارتباط بين النظر والنطق . وانى اذكر أن طفلا ظل يناضل ويجاهد ستة أشهر كاملة حتى استطاع أن يمرن جهازه العصبى على هذه العملية وافلح . واذكر الشاة التى ذبحها والداه احتفالا بفوزه

هذا مران آلى لاأكثر ولا أقل لأن الطفل لايدرى قيمة الباء فى أى نظام فى الوجود . لم يمر عليه فى اختباراته اليومية أن رأى باء أو سمعها أو وقعت تحت حسه بأى شكل من الاشكال . وكان يحسن أن يتعلم الكلمات صحيحة بداءة ذى بدء ومن ذلك يعرف الحروف الابجدية . يستطيع الطفل أن يتعلم لفظة « باب » مثلا لأن مثل هذه اللفظة مرت به وأختبرها بنفسه ووقعت تحت حسه

وبالاختصار فاننا نرى أن المدرسة تعتمد كل الاعتماد على المران . فهى لا تعلم الطفل ولا تفهمه ولكنها تمرنه كما نمرن بعض الحيوانات على اتيان حركات بذاتها من غير أن تفهم ما هى فاعلة

التربية فى المدارس

طريقة المدرسة فى تعليم الاطفال خاطئة لأنها تمرنهم ولا تعلمهم . وأما من جهة تربيتهم فهذا مالا تفعله المدرسة ايضاً . الحق انها تخطىء فهم التربية كل الخطأ وتخلط بينها وبين التعليم خلطاً كبيراً فى الحق اننا نرى من تصرف المدارس مع الاطفال انها فى الواقع لا تفهم أن لها وظيفة عدا تعليمهم وشحن ادمغتهم بالحقائق فالمنهج وقف على المواد والساعات وما يجب أن يدرسه الاطفال وما يجب أن لا يدرسوه . وأما تربية النشء وتعهده لكى ينمو ويتفتح فهذا مالا يهتم له المنهج

حيازة المعلومات والتعليم ليس هو التربية ولكنه جزء منها لاغير . لأن للاخيرة ناحية اجتماعية لاتدخل تحت باب التعليم . فالانسان الذى يستحوز على قسط معلوم من الحقائق يصح أن ندعوه متعلما ولكن لايستلزم هذا أن يكون قد حاز على قسطه من التربية وتمنح الحكومة المصرية البكالوريا للشاب لانه يعرف ما يجب أن يعرف من الرياضيات واللغات والعلوم الاخرى . ولكن هذا لا يعنى أنه تربى وتهذب . أما كيف تنمو شخصيته وما أثر هذه الشخصية فى الجماعة أو بعبارة أخرى ، أما التربية الحقة فليس لها مكان فى نظام التعليم عندنا

من هذا يتضح أن التربية هى عملية تجعل عيون الفرد تتفتح وشخصيته تنمو والناحية الاجتماعية من حياته تقوى حتى يصير عاملا فعالا فى حياة الجماعة التى ينتمى اليها سواء أكانت هذه الجماعة كبيرة أم صغيرة . ففى عرف التربية أن كل طفل هو

حالة قائمة بذاتها لها حكمها الخاص الذى يختلف عن حكم كل الافراد الآخرين . فلا يجوز عليه بالضرورة ما يجوز على غيره — وحال الاستاذ فى هذه العملية كحال الفلاح الذى يتعهد كل نبتة بمفردها يعالجها ويحميها ويدفع عنها كل الآفات ما استطاع الى ذلك سبيلا . وبعبارة اخرى إن كان التعليم بالجملة فالتربية يجب أن تكون بالقطاعى

ولكننا نرى أن المدارس فى بلادنا تعالج الاطفال بالجملة وتخضعهم كلهم لنظام واحد . وهى بهذا تغض النظر عن جميع الفروقات الفردية التى اثبت وجودها علماء النفس بشكل قاطع . وكل هم الاستاذ أن ينجح فى درسه عدد معين من الاولاد وأن يخرج فى آخر السنة بنسبة مئوية معلومة . وأما ما عدا ذلك فليس يهم فى شىء

ليس يسعى الأستاذ لأن يعالج كل طفل على حدة ولا يقف جهوده ونشاطه على خير كل طفل بمفرده — لا يدرس الطفل و يراقبه ويتعهده ويرعاه ويقدم له المعونة اللازمة له فى طور النمو الذى يمر فيه . ولا يعين الطفل حتى لا ترهقه البيئة وتحمله فوق ما يتحمل . كل هذا لأن الاستاذ يفهم أن وظيفة المدرسة تختلف عن هذا ووظيفتها فى عرفه هى أن تقدم للطفل المعلومات المقررة فى المنهج وأن تحاول بكل الطرق الممكنة أن تجعله يحصل على قدر من تلك المعلومات يتناسب مع بقية أفراد الفرقة

اذن فداء المدارس فى بلادنا هو الفهم الخطأ ان التربية هى مران آلى لا يتعدى التصرف فيما يعرض للطفل فى قاعة التدريس أو ماله اتصال بقاعة التدريس لاغير وما يعرض له فى هذه القاعة ليس شيئا سوى أن يستظهر قطعة من الشعر أو يصف ارقاماً بعضها الى بعض أو أن يستظهر قائمة طويلة من حقائق تقويم البلدان

ومعظم هذه الحقائق لا تمت لحياة الطفل اليومية بصلة . وان لم يكن هذا هو الواقع فالكاتب يرغب ويريد بأخلاص أن يعلم صلة الجبر وهندسة اقليدس وما أشبه بحياة المجتمع المصرى البالغ فضلا عن حياة الاولاد الذين لا تتجاوز اعمارهم الخامسة عشرة . ما دخل هذا الطفل بمنبع نهر الجانج وحوضه ومصبه

وما ينبت على ضفافه . ولماذا يطالب الولد المصرى أن يتعلم تعداد السكان فى بيكين وما تنتجه أوماها وجزر الاوقيانوس

ولسنا نكرر أن للمعرفة فوائد أياً كانت هذه المعرفة . ولسنا ننكر أن فروع العلوم كلها ليست تضر على أى حال متى فاز بها الانسان . ولكن لمثل هذه الامور حداً لايجب أن تتعداه ومقدرة الطفل وكفايته ليست مطلقة وليست غير محدودة . واذا كان الأمر كذلك يجب أن نختار منها ما كان أمس بحياة الأولاد الراهنة وما كان منها يؤثر بطريقة مباشرة فى حياته ونشاطه اليومى . وانه لافضل للطفل فى رأينا على الأقل — أن يعرف كيف يصلح دراجته ويعرف شيئاً عن حيوانات حديقة الجيزة وكيف يطالع الكتب وكيف يبحث فى بطونها عما يريد من أن يمر بهذا المنهج الذى يتخذ المران الآلى وسيلته الوحيدة فى حشو أدمغة أطفالنا بالمواد المتنوعة

ولكن المدرسة فى بلادنا مغرمة بهذا المران وهذا الاستظهار . وهما كل ما ترمى اليه التربية عندنا . ونتج عن ذلك أن يبقى الطفل داخل جدران أربعة تسعاً وثلاثين ساعة فى الاسبوع أو ما أشبه . وهذا فى الواقع سجن للاطفال وهم حريون أن يبغضوه ويحاولوا الخلاص منه

الحق اننا نرى أن من يزعم أن حبس الاطفال فى القاعة واستظهار الحقائق هو الحياة التى يجب أن يحياها الطفل — من يزعم هذا فليس يدرى ما هى الحياة والذى نذهب اليه فى هذا الصدد هو أن المدرسة فى بلادنا على حالتها الراهنة لم تعد دينا يعيش فيها الاطفال . بل هى مكان يقضى فيه الطفل سنيه الاولى منقطعاً عن الحياة انقطاعاً يكاد يكون تاماً . بل هو فى حالته هذه اشبه بالمحكوم عليه الذى يقضى زمن الحكم منه بالكائن الحر الحى

المدرسة فى الرأى الحديث

أن المدرسة فى رأى علماء التربية المجددين هى صورة مصغرة للمجتمع البشرى أى انها تعتبر كذلك ، وليست وسيلة للجمعية البشرية كما يعتبرها كثيرون فى بلادنا والفرق عندنا بينها وبين الجمعية البشرية هو أن المدرسة أولا صورة مصغرة للجمعية

وثانيا انه يسهل التحكم فى عواملها وضبطها بخلاف الجمعية البشرية التى يصعب التحكم فيها بطريقة مجدية . وثالثاً انها غير معقدة وعلى هذا فهى قريبة لافهام الاولاد . ولكل هذه الاسباب لا يحسن بنا أن نعتبرها مكاناً للتعليم فقط بل نعتبرها دنيا للاطفال فيها يعيشون ويصرفون جهودهم ونشاطهم ثم يتعلمون

فكل ما تريد الجماعة أن تعمله وتتعلمه يجب أن يتعلمه الاطفال و يعملوه . فاذا كان طهى الطعام من مستلزمات الجماعة وجب أن يكون ايضاً من مستلزمات المدرسة . فليست المدرسة نظاماً خاصاً قائماً بنفسه مستقلا عن الحياة العامة . بل هى الحياة العامة نفسها فى شكل اصغر وأكثر سهولة وبساطة . واذن فنحن نستطيع أن نسأل لم يستظهر الاولاد المصريين فتوحات الدولة العلية ولم يتعلم بناتنا الجبر والمثلثات . ولم هؤلاء واولئك يتعلمون فقط . لماذا لا يعيشون ايضاً

والأستاذ ديوى يتكىء جداً على الناحية الاجتماعية للمدرسة خاصة وللتربية عامة . ففرض التربية فى عرفه الحياة نفسها — الحياة فى حالتها الراهنة ومن ناحيتها الاجتماعية . وعلى هذا فليس يصح أن تعتبر التربية وسيلة لغاية معينة . فما هى الا غاية فى نفسها . واليك ما يقوله الأستاذ ديوى فى هذا الصدد . « الحياة معناها النمو والاضطراد . والكائن الحى يحق له حتما أن يحيا ويعيش فى أى مرحلة من مراحل الحياة وجميع مراحل الحياة هذه تتساوى فى الاعتبار والقدر والقيمة »

فليس يقصد من ذهاب الطفل الى المدرسة اذن أن يعلم ويمرن مراناً وتعليما آليا على حساب الحياة السعيدة المفيدة . ليس للمدرسة أن تعلم الطفل فقط بل عليها أن تجعله يحيا ويعيش . وبعبارة أخرى ليس واجب المدرسة أن تعد الطفل لحياة اخرى مستقبله قريبة أو بعيدة فقط لأن للطفل ماهو فيه من حياة وعلى المدرسة أن تستثمر تلك اللحظات من حياته الراهنة الى اقصى حدود الأستثمار . وفى الحق أن المعلمين الذين يزعمون انهم يعدون الاطفال لحياة اخرى فقط لا يدرون الغرض من وظيفتهم ولا يؤدونها خير اداء

يقول الأستاذ ديوى فى هذا « يحسن بنا أن نذكر انفسنا أن التربية فى ذاتها

ليس لها غاية أو غرض. وفى الواقع ليست الاغراض والغايات الا للاشخاص فقط أى ان الآباء والمعلمين هم وحدهم الذين يصح أن تكون لهم اغراض وأن تكون لهم غايات. أما التربية نفسها فهى شىء معنوى وليس لها أغراض ترمى اليها وعلى هذا يجب أن نأخذ فى حسابنا نشاط من يراد تعليمهم وحاجياتهم الطبيعية والاكتسابية عندما نحدد للتربية والتعليم أغراضهما »

فليست التربية اذن حشواً لأدمغة الاطفال بالحقائق التى ليس لها علاقة بحياتهم الواقعية. بل يجب أن نجعل نصب اعيننا امرين مهمين تغفلهما برامجنا كل الاغفال. أولا: يجب أن نذكر أن للأطفال حق الحياة ايضاً. فطفولتهم ليست طريقا للرجولة فقط بل هى حياة لها ما لكل انواع الحياة من القيمة والقدر. فيجب اذن أن نرتب لهم الامور بحيث تكون اقامتهم فى المدارس حياة فعلية ايضاً وليست مجرد فرصـــة لارهاقهم بالمواد كأنه سيغلق على عقولهم بعد هذا الدور فلن يستطيعوا أن يتعلموا شيئاً. وثانياً: يجب أن تتاح لهم الفرصة فى المدرسة لينموا نمواً جسميا وعقليا واجتماعياً ويستمتعوا بالحياة استمتاع الاحياء بها. فالمدرسة مكان للنمو ايضاً. والنمو ليس قاصراً على استظهار الحقائق بل يتناول الانسان من جميع نواحيه

عقد الاستاذ ديوى مقارنة بين حالة المدرسة الآن وما يجب أن تكون. فيما هى آخذة فيه وما هى تاركته. بين ما تزعم انه من واجبها اداؤه وما تظن انه يخرج عن نطاق اغراضها. فقال: « ان التربية فى حالتها التقليدية الراهنة تخضع الزمن الحالى أو الواقع الحى للمستقبل البعيد المجهول. ومبدأها هو الاعداد والتحضير والتجهيز. فنتج عن ذلك انها فشلت فى الاعداد والتجهيز الكافيين وفى تكييف الكائن الحى تكييفا مستنيراً معقولا. فأكبارها وتوكيدها المتعسف للمستقبل انقلب فى الواقع ونفس الامر الى انقياد اعمى للتقليد، والى تخبط غير منتج من يوم الى يوم ... أما لو كنا نسير بالتربية على قاعدة استثمار الموارد الراهنة كل الاستثمار. أو على قاعدة تحرير قوى الاطفال واطلاقها وتسديد مجراها تلك الطاقات التى تظل تتطلب الانطلاق. أما لو كنا نفعل هذا لكانت حياة اطفالنا

تكون أسعد حالا وأعود عليهم وأكثر امتلاء بالمعانى منها الآن . ولنتج عن ذلك ايضاً أن عقل المربى كان يأخذ فى استقصاء اتجاهات قوى الاطفال . وفى البحث عن جميع الموانع والعوائق التى تعترضهم . وفى تتبع اختبارات الازمنة الخالية جميعها التى تساعد على تفهم الطاقات الحالية . ثم لأخذ العقل ايضاً فى تكييف الغرائز والعادات الحية فى الفرد . ليس بقصد اخضاع الاخيرة للاولى . ولكن بقصد معالجتهما معالجة مستنيرة . لو كان المربون يفعلون هذا لكنا نرى أن التربية تنسحب على المستقبل من تلقاء نفسها . ويكون اعداد الاطفال لهذا المستقبل امراً واقعياً بخلاف الحال الآن حيث تفشل فشلا مريعاً فى اعداد النشء لهذا المستقبل »

ويتفق ثورندايك مع هذا الضرب من التربية — وهو كما لا يخفى من أئمة علماء النفس المعاصرين . فهو بحـــكم استعداده اهل للحكم فى هذا الموضوع حكما يتقبله معظم المربين فى عصرنا هذا . واليك ما يقوله ثورندايك فى صدد ما ذهب اليه ديوى . « ذلك المذهب الذى دافع عنه ديوى دفاعاً بديعاً رائعاً — أى ان مهمة المدرسة تنحصر فى تكييف برامجها تكييفا يساعد الطلبة على حل معضلات حياتهم الراهنة — هذا المذهب يتقبله الجميع على علاته . » وبعبارة أوضح أن مهمة المدرسة ليست تنحصر فى تعليم الطلبة تعليماً آلياً وحشو ادمغتهم بالحقائق . بل هى فى الواقع اعداد الطفل ليحيا فى الحال بالفعل وليأخذ نفسه بمجابهة ما يعرض له من المشاكل الراهنة فيحلها

ومحصل القول فى فلسفة التربية الحديثة هو أن المدرسة يجب أن تكون البيئة التى فيها تستيقظ فى نفس الطفل الميول الايجابية فى تصريف أمور حياته الراهنة . أو بعبارة أخرى أن المدرسة هى الدنيا التى يعيش فيها الطفل فى الحال . وبطبيعة الحيش تعترضه ككائن حى بعض الامور التى تتطلب منه أن يبذل مجهوداً ونشاطاً يتجهان لناحية معينة بقصد التصرف فيما يعرض له . وهذا ليس من مخترعات الخيال أو من النظريات البعيدة عن الحياة العملية . لأن الكائن الحى فى نشاط مستمر وحركة دائمة الغرض منهما معالجة عوامل البيئة أما بقصد التغلب عليها أو بقصد توجيهها الى وجهة معينة

فالسعى هو مظهر الحياة . والتربية ليست الا توجيها لهذا السعى الى وجهة معلومة . ثم منعه عن التدفق فى الوجوه الاخرى

التربية الاخلاقية فى المدارس المصرية

ليس للتربية الاخلاقية مكان فى مدارسنا . وهذا لا يعنى بالطبع أن المدارس تغض الطرف عن النقائص أو تترك الفساد ينتشر فى ربوعها . شيئاً من هذا لسنا نقصد . ولكن من الجهة الاخرى فان التربية الاخلاقية الايجابية ليس لها وجود فى المدارس . لم نلتفت بعد الى هذه الناحية التفاتاً علمياً يقوم على أساس صحيح من قوانين التربية الحديثة . وكل ما تفكر فيه المدرسة المصرية فى وقتنا الحاضر ليس شيئاً سوى عقاب من يخطىء من الطلبة خطأ يستحق العقاب أو يستدعى التوبيخ فكأن الاداة الوحيدة فى بناء الاخلاق عندنا هو العقاب او التوبيخ ليس غير والحال أن علم النفس وعلوم التربية لا تذهب هـذا المذهب . فليس حتما لزاماً أن يكون العقاب والتوبيخ هما الاداة الوحيدة فى بناء الاخلاق . ليست الوجهة السلبية من الآداب هى كل ما فى الامر لا بل ليست هى أهم ما فيه

ان الاخلاق شىء ايجابى له قوة دافعة . فهى بث الميول الاجتماعية وتعهدها بالعمل والنشاط . وهى ايضاً بث المؤثرات الايجابية فى الفرد وتعهدها لتنفعل وتنتج ما تنتج فى عالم الآداب والفضائل . فالاخلاق اذن هى التأثر بمؤثرات خاصة تنتج افعالا خاصة . وعلى ذلك فهى تستدعى أن يكون للانسان فرصة ليحيا بطريقة معلومة . وبهذه الصفة ليس لها مكان فى مدارسنا . فكل ما تعمله المدارس فى باب التربية الاخلاقية من الوجهة الايجابية هو أن تعظ وتحض . ونحن لسنا فى حاجة الى الوعظ والحض . أو على أقل تقدير ليس هذا كل ما نحتاجه لأن اهم عامل من عوامل الاخلاق — الا وهو الفرصة لممارستها عملياً وفى الحياة المدرسية — ليس له وجود فعلى فى هذه المدارس وعلاوة على ذلك فالتربية الاخلاقية التى تقوم على الوعظ والارشاد ليست من النوع المنتج المفيد

وأما معظم كتب التربية الاخلاقية للمدارس فهى لا تختص الا بتعاليم دينية تعسفية وسنتناولها بالبحث عندما نعرض للتربية الدينية . والحق أن الكاتب

لم يعثر فى الكتب المقررة على واحد يصح أن يعد بحق من كتب الاخلاق التى لها قيمة تذكر . ونستثنى من ذلك الكتاب القيم البديع الذى وضعه الاستاذ احمدأمين فى « الاخلاق »

ولو تصفحت هذه الكتب جميعاً كما تصفحها الكاتب لوجدت انها تحتوى على بعض الحوادث فى صدر العصر الاسلامى للطلبة المسلمين . وبها بعض القصص اللامذهبية (secular) التى تدور حول الكذب والصدق والامانة والشجاعة وما أشبه . وعلاوة على ذلك فروح تلك القصص أو مغزاها والدين الذى تحاول بثه — هذه جميعاً لا تعنى بالآداب والاخلاق والدين الا من الوجهة النفعية . فالغاية منها جميعاً هى المنفعة الاقتصادية فى معظم الاحوال أو التقدير الاجتماعى فى بعضها وبالطبع السماء أو الجنة وجهنم النار تلعب دوراً هاماً فى الحث على الآداب والاخلاق فى هذه الكتب . وبالاختصار فان الاخلاق تعامل دائما على انها وسيلة لغاية اخرى وقد تكون هذه الغاية مادية أو اجتماعية . وقد تكون الاخلاق وسيلة للفرار من نار جهنم

وفى الحق أن هذا المنحى فى بث الاخلاق خطأ من أساسه : أولا لأننا وجدنا انه يصعب جداً تعليمها وبثها بالوعظ والحض والكلام . فالاخلاق لا تدرس بل هي نوع من الحياة يحياها الفرد . وفى المدارس فرص كثيرة لحياة كهذه . وثانياً لأن الاخلاق ليست وسيلة لغاية اخرى . بل هى غاية فى نفسها

ومع ذلك حتى لو سلمنا جدلا بأن الاخلاق تبث بالوعظ والكلام فقط فطريقة النفعية لا تجدى فى تعليمها . ومن حيث نار جهنم فقد فقدت كثيراً من تأثيرها المرعب من افتدة العالم المتحضر بما فيه مصر . فليس يقف الولد عند اتيان امر من الامور ليرى هل يقوده مثل هذا العمل الى جهنم أو الى غير جهنم . وفى الحق انه لخير للنشء أن يكون وازعه فى اعماله شيئا آخر غير الرعب والخوف

أما من حيث المنافع الاقتصادية والاجتماعية التى تعود على الولد من تخلقه بالاخلاق الفاضلة فهو زعم شديد الخطورة على الاخلاق ومشكوك فى صلاحيته وذلك لسبب بسيط وهو انه لا يصدق فى معظم الحالات . فقد يسبب التخلق

بالفضائل خسائر اقتصادية واجتماعية كثيرة . وبالاختصار فان اعتبار الاخلاق مجرد وسيلة لغاية أخرى فيه خطر كبير

ولا تقتصر اخطار النظرية النفعية على الوجهة السلبية اذ أن لها اوجهاً ايجابية كثيرة . لانه اذا كانت غاية الاخلاق المنافع الاقتصادية والاجتماعية فما ضر الطفل أن يحصل على هذه الغاية بوسائل اخرى كأن يترك الاخلاق وشأنها ويلجأ الى الرذائل والقبائح للحصول على تلك الغاية ؟ وفى الحق أن كثيرين من الاطفال يعجزون عن مقاومة هذه التجربة فهل يلام الطفل على اتباع هذا السبيل ؟ اذ انه ليس للانسانية أن تتشبث بالوسائل . يكفيها الغايات تتحقق . اما اذا تشددت فى تخير الوسائل فانها تكون قد احالتها الى غايات وهى تدرى أولا تدرى . فاذا اكتشف الطفل بالأختبار يوماً من الايام أن الجماعة مخطئة فى اختيار تلك الوسائل بعينها للاغراض والغايات التى وضعتها نصب عينها . نقول اذا اكتشف الطفل هذا الخطأ — وهو لا بد فاعل — اذا وجد بالاختبار المرير أن الاخلاق ليست وسيلة مؤكدة لمثل هذه الاغراض الاقتصادية والاجتماعية فماذا يكون مصيره ؟ وماذا يستطيع هذا الضرب من التعليم أن يقول أو يفعل

وبخلاف ذلك فاننا لو دققنا النظر فى هذا النوع من التربية لوجدنا فى آخر الامر أن الولد الذى يتخلق بالاخلاق الفاضلة لهذه الاسباب ليس له من الاخلاق حظ كبير أو قليل . والسبب فى ذلك واضح . لأن كل هذه الغايات التى نجعلها غرض الآداب إن هى الا غايات ذاتية . فكأن الكون يدور حول منافع الفرد فهو الذى يربح من الاخلاق وهو الذى يخسر من غيرها . وبعبارة أخرى أن هذا الضرب من التربية يتطلب من الولد أن يكون محباً لنفسه نفعياً وفردياً . وكل هذه الصفات تتعارض مع نظريتنا فى الاخلاق على خط مستقيم . فالاخلاق فى نظرنا اجتماعية غيرية وليست فردية أو ذاتية

وبالاختصار أن التربية الاخلاقية فى مدارسنا تقوم على الوعظ والحض والكلام وتنتهى الى نتيجة منطقية واحدة وهى أن تكون اخلاقا لا طعم لها ولا لون فى مفعولها إن لم تكن ايجابية فى اضرارها . ثم انها غير مجدية ولا علاقة لها

بالجماعة والاجتماع التى هى الأساس فى بناء الاخلاق

فالحل الوحيد كما يخيل الينا هو الأخذ بالوجهة الديناميكية (The dynamic Aspect of Character) من الاخلاق كما مر بنا . أو بعبارة أخرى هو توفير الظروف والأسباب واصلاح البيئة فى المدرسة بحيث يحيا الولد حياة اخلاقية عملية . وهذا بالطبع لا ينفى أن الولد يعلم ويرشد وتقدم اليه المعلومات والحقائق التى هى من متممات الفضائل والآداب

التربية الوطنية

فالتربية الوطنية مثلا هي نوع من المعرفة الاخلاقية (moral knowledge) التى يجب أن يحصل عليها الطفل من المدرسة . ولم يكن لهذا الضرب من العلم والمعرفة مكان فى برامجنا الى عهد قريب فالاولاد لم يكونوا يدرون شيئاً عن نظام حكومتهم ولا عن مسئوليات كل طائفة ومميزاتها وخواصها ولا مقدار ما تقدمه تلك الطوائف من الخدمات للجماعة المصرية . وهل تقوم بما وضع عليها وهل لوجودها مبرر لأن مثل هذه المعلومات اذا ما علمها الطفل تجعله اكثر خبرة بالجماعة التى يعيش فيها . يقول (شارب) (١) : « أن التربية الوطنية اذا ما درسها الطفل بالطريقة المثلى ، هى من خير العلوم وانجعها فى ايقاظ عاطفة حب العدل والصلاح فيه ، وهى ايضاً من خير الامور فى مساعدة عقله على تحقيق مثله العليا »

فالى عهد قريب لم تكن تعطى للطفل دروس فى محبة الاوطان والاسرة والجماعة أو فى فهمها . ولم يكن يجد تقديراً كافياً لرجال قومه العظام . وبالطبع انه من لغو الكلام أن نقول إن الاخلاق لاتنمو نموها المطلوب من دون العلم بالجماعة التى يعيش فيها الفرد ومن دون معرفة معاهدها ونظمها وما أشبه ومن دون أن يقوده مربوه الى احترام تلك الجماعة ايضاً

وأما احترام الجماعة المصرية فيكاد يكون منعدماً عند افراد المصريين فى مجموعهم مع استثناء القليل منهم . انه ليزعج الانسان حقاً أن يرى أن احتقار الافراد لهذه الجماعة ظاهر مجسم كأن الله خلق المصريين من طينة أخرى غير تلك التى خلق

F. C. Sharp " Education For Character,, page 230

منها الغرب . أن المؤلف ليفهم أن يكون لمواطنينا اغلاط قبيحة ونقائص معيبة ولكنه يثور أذ يسمع من احدهم اننا لا ننفع لشيء أو اننا ميئوس من صلاح حالنا ثم هناك ايضاً بعض الذين تعلموا فى الخارج وحصلوا على بعض القشور . بعض هؤلاء رجعوا الى بلادهم باجسامهم وأما عواطفهم وعقولهم ومشاعرهم فقد تركوها فى الغرب . ولقد سمعت أحدهم مرة يقول انه لا يشعر بأنه بين أهله وعشيرته الا فى انجلترا (At home in England)

فالتربية الوطنية الحقة متى كان القائمون على أمرها اكفاء تذهب بكثير من هذه الظواهر القبيحة التى لا تدل الا على الكنود والجمود وعلى عدم فهم للبلاد أو عدم حب وحدب على الاسرة والبيئة . والعواطف والمشاعر هى من الشروط الأساسية للوطنية . ونحن ندعو الى مثل هذه التربية وندعو الى توسيع برامجها بحيث تكون شاملة جامعة . ندعو الى هذا بشرط واحد وهو أن لا تكون مثل هذه التربية ضيقة متعنتة أو متعسفة فتجعل الطفل محباً لبلاده وكارهاً أو محتقراً لمن عداها من الدول كما هو الحاصل الآن فى معظم دول اوربا . يجب أن يفهم الطالب ايضاً أن الجماعة البشرية فى مجموعها هى وحدة . وليس هذا فقط بل وحدة مقدسة يجرم من يحاول تفكيكها

التربية الدينية

من عمل الدين أن يبث الاخلاق والفضائل كما بينا فى كلام سابق . أما اذا لم يقم بهذا العمل فقد فشل كل الفشل ويحسن بنا فى هذه الحالة أن نتركه من حسابنا فيما يتعلق بالأمور الاجتماعية . والآن فلنسأل . هل تقوم التربية الدينية فى مدارسنا بهذا الامر حق قيامه ؟ هل غرضها الاول والأساسى بناء الاخلاق وبث الفضائل

نحن لا يهمنا من الأديان فى هذا المقام مراميها ومباديها واغراضها أو المفاضلة بينها . كل هذا لا يعنينا هنا . وانما كل ما يهمنا منها هو طريقة تعليمها فى المدارس وبعبارة أخرى نحن نبحث فى التربية الدينية وليس فى الدين نفسه . فالتربية الدينية تخص ارباب التربية الذين هم وحدهم المنوطون بمثل هذا الأمر . وأما الدين فى نفسه فله ائمته وأربابه ونحن نتبع بعض هؤلاء فيما يذهبون اليه

فا كثر اهتمام الدين فى عرف بعض ارباب هو للذهاب الى الجنة وللفرار من نار جهنم . وهذه الوجهة لا تعنينا من جهة قيمتها فى الايمان ولكن قيمتها فى الاخلاق مشكوك فيها كثيراً . لأنه اذا كان الخلاص من نار جهنم لا يهم الولد كثيراً . أو اذا تطرق اليه الشك فى وجودها الفعلى فسيترك الولد الدين تركا باتا أما اذا وجد أن تركه للدين بهذا الشكل يجلب عل رأسه غضب الجماعة التى يعيش فيها فسيظل تاركا له بالفعل وفى الواقع حتى وان تمسك به فى الظاهر . ولكنه اذا كان له من الفضيلة القدر الكافى أو اذا كان ممن لا يتظاهرون بما لا يبطنون فسوف يتركه و يتحمل النتائج التى تترتب على هذا الترك كما يحدث مع كثيرين من المسلمين والمسيحيين على السواء . ثم أن بناء الدين على أساس هذه الأمور المادية خطر فى ذاته . لأنه ينتج عنه أنه كلما تعلم الشعب وتحرر فى ارائه من قيود التقاليد القديمة — وهذا امر ميسور وقريب — فسوف يزداد عدد الكفرة وأحرار المعتقدات Free Thinkers واللا أدريين Agnostics . حقا أن ازدياد التعليم فى كل مكان يصحبه عادة ازدياد فى مثل هذا الصنف من الناس . ولكن حالنا سوف تكون شراً من حال غيرنا وذلك لأن ارباب الدين اقفلوا باب الاجتهاد أو كادوا يقفلونه دون جميع الآراء الحديثة

ومع ذلك ايضاً فليس هذا مما يعنينا كثيراً فى هذا البحث . لا يعنينا سواء أأقفل باب الاجتهاد فى الدين أم ما زال مفتوحا . ولكن للمسألة خطر من وجهة التربية الدينية فى المدارس . ذلك لأن هذا الاتجاه فى الميول يتحكم فى وضع كتب التربية الدينية وتخيرها . وهذه الروح هى التى تقر ما اذا كانت كتب معلومة تدخل المدارس أم لا تدخل . ولقد تصفحنا ما وصل الى ايدينا منها وخصوصاً تلك التى تقررت للطلبة فى المدارس من ابتدائية وثانوية

وفى الحق أن محتويات هذه الكتب ترجف . فبأى ميزان وزنتها لا تجد أن لها علاقة بالدين . فكل ما فيها هو عبارة عن فلسفة عتيقة متعسفة لا تمت للواقع بصلة من الصلات . وهل يعقل أن ولداً فى الثامنة أو السابعة من عمره يفهم صفات الله تعالى واسمائه الحسنى وذاته العلية والثالوث الأقدس ؟ كيف يستطيع

طفل فى هذه السن أن يفهم المقصود من تلك الالفاظ ترص الى بعضها من غير أن يكون لها عنده معنى ومن غير أن تقع هى واشباهها تحت حسه وفى متناول ادراكه ؟ أم هل يفرض فى اطفالنا أن يكونوا كالببغاوات يرددون الاصوات وهم لا يدرون ما يقولون ؟ أم يفرض فيهم انهم يدركون معنى تلك الالفاظ لمجرد رغبة الكبار فى ذلك ؟ كأن ما نرغب فيه ونشتهيه يصير بمجرد هذه الرغبة وتلك الشهوة مفهوماً للاطفال والرضع . ومن جهة أخرى هل يستطيع من حشا تلك الكتب بمثل هذه الالفاظ أن يضع هذه الحقائق فى كلام بسيط مفهوم أو فى لغة سهلة هينة يستطيع الصغير أن يتفهمها ؟ اننا نرى انه اذا كانت مثل هذه الحقائق تدرس على الاطلاق فهذه السن هى اردأ ما نختاره لها

ومع ذلك فما هى النتيجة الخلقية أو الأدبية التى تعود على الطفل من أخذه بمثل هذه الامور التى تنوء تحتها قواه العقلية ؟ هل يصير خلقه امتن اذا حفظ صفات الله جميعا عن ظهر قلب ؟ هل تتغير حياته بالفعل وفى الواقع اذا ما استظهر نصف آيات القرآن أو التوراة والانجيل من غير أن يفهم معناها ؟ الحق اننا لا نجد عائدة من تحميل عقول الاطفال بمثل هذه الفلسفات كالقادر على شىء والعالم بكل شىء والحال فى كل مكان واشباه هذه التعاليم التى يعجز معظم البالغين عن فهمها . فاذا كان هذا حال البالغين معها فكيف تكون حال اولئك الاطفال المساكين الذين يكادون لا يفقهون من الاشياء فى هذا الدور الا ما كان منها يقع تحت الحس والمشاهدة — واين مثل هذه التعاليم من دنيا الاطفال ؟ الحق اننا نرى انه لا فائدة اخلاقية تعود من اثقال كاهل الاطفال بمثل هذه الامور فى مثل هذه السن

ليس لمثل هذه التعاليم فائدة للطفل أولا لأنها ليست من معضلات الحياة ومشاكلها فى نظره . لا بل هى لاتقع فى دائرة اختباراته اليومية أو فى حيز مجهوداته ونشاطه بأى وجه من الوجوه . إذ أن مشاكله ونشاطه ومجهوداته تقع كلها فى حيز أو مستوى آخر بخلاف هذا . لا بل نذهب الى أكثر من هذا فنقول ان مثل هذه التعاليم تزيد مشاكل الحياة له وتخلق المعضلات له خلقاً من غير داع لذلك . فهى تثقل كاهله عند مايحاول أن يستظهرها كى ينال رضاء أساتذته ويقوم

بواجباته المدرسية على الوجه الأكمل . فالمؤلف يعرف بالاختبار أن هذه التعاليم وأشباهها بغيضة إلى الأطفال وكريهة . وهى فى نظرهم شر لابد منه . وكل هذا ليس مما يساعد على بناء الأخلاق كما نفهمها . لا بل نستطيع أن نقول أنها معطلة لها ومضرة بسيادة الدين على القلوب والعقول

وثانياً لأن لمثل هذه التعاليم أضراراً إيجابية . فالحياة معقدة التعقيد كله على الأطفال . وهم فى مثل سنهم هذه يحتاجون لأن يوضعوا فى أبسط مظاهر الحياة حتى لقد قيل أن واجب المدرسة الأولى هو أن تقدم لهم الحياة فى سهولة وبساطة بعيدة عن التعقيد والالتواء . وأين هذا مما تفعله هذه التعاليم ؟ ثم ان الحياة المدرسية فى بلادنا مزدحمة بالمواد ازدحاماً مريعاً . وان نعجب لشىء فعجبنا للطفل المصرى الذى لاينوء بمثل تلك الاحمال الثقيلة . وفى الحق أن الطفل عندنا فى حاجة مابعدها حاجة إلى الراحة واللعب والمراح والتسلية البريئة المفيدة . وفى نظام مدارسنا الحاضر ليس له متسع لكل هذه أو لجزء معقول منها . والنتيجة لذلك أنه لايحتاج الى كل هذه النظريات . فكل ماقل مايطلب منه القيام به كلما تحسنت أحواله الصحية والعقلية والاجتماعية والأخلاقية والدينية أيضاً

وثالثا وأخيراً يجب أن لاتعدو التربية الدينية العلائق الاجتماعية . يجب أن لاتورط فى النظريات والآراء الفلسفية بدرجة تجعلها غير متصلة بالواقع الملموس وبالامور العملية البحتة . لأنها إن فعلت انقطعت الصلة بينها وبين الأخلاق تلك الصلة التى قلنا فى مكان آخر أنها غاية التربية الدينية . فغرض الدين كما يفهمه جمهرة العلماء هو بناء الأخلاق بداءة ذى بدء . ولكنه فى بلادنا أوشك أن يكون شيئا مستقلا بذاته لاعلاقة له بالحياة اليومية

وبالاختصار إننا ندعو بالحاح الى تغيير كل الكتب الدينية التى تدرس فى مدارسنا وبخاصة فى المدارس الابتدائية والسنين الاولى من التعليم الثانوى . وغايتنا من هذه الدعوة أن نتناول الدين فيما يوضع من الكتب فيما بعد من الوجهة الاجتماعية فقط دون العقائد والآراء والفلسفة التى تدعم هذه العقائد والآراء .

فحاجتنا القصوى الآن هى إلى الاخلاق القويمة وإلى الميول الاجتماعية السليمة وليس الى تعسفات ميتافيزيقية

ويلاحظ مما تقدم أننا لم نعرض للأديان فى ذاتها لأن هذا ليس من شأننا . ومن وجهة نظرنا ليكن للاديان جميعا من الآراء والعقائد والفلسفات ماتريد وما تشاء . وكل مايهمنا هنا وكل ماذهب اليه هو طريقة تعليم الدين للافراد . وهذه مسألة تختص بالتربية التى لها وحدها كل الشأن فى الوسائل والطرق

العلاقة الجنسية

كل بحث فى بيئة الولد المصرى — وفى بيئة أى ولد آخر — يخلو من الاشارة إلى العلائق الجنسية بين الذكور والاناث فهو بحث ناقص ومشوه . ومع أن المؤلف يشعر بأهمية مثل هذا البحث الا أنه مضطر بحكم الظروف لأن لايتوسع فيه نظراً لما استغرقته البيئة فى مجموعها من هذا الكتاب . وعلى هذا فسنقتصر على بحث بعض الامور الجوهرية فى هذا الامر

مركز المرأة المصرية

لقد فات كتاب الغرب فهم هذه النقطة على حقيقتها . فهم متأثرون وهم يدرون أولايدرون بما كتب قديما عن المرأة المصرية

ففى رأى هؤلاء الكتاب ومن رأينا نحن أيضا أن تعدد الزوجات هو أصل لبلاء كثير وشر مستطير . ولكن أولئك الكتاب لايقفون من هذه المسألة عند هذا الحد . ولا يكتفون بتقرير هذه الحقيقة التى لن تجد اثنين من المتنورين يختلفان فيها بل تراهم يسبحون فى عالم الخيال ويستوحون الفن والعبقرية اللذين قد يوجدان فى كثير منهم لتصوير حالة الاسرة المصرية بصورة تكاد تكون طبق الاصل لكتاب ألف ليلة وليلة

فمنها أن البيوت المصرية مقسمة الى قسمين أحدهما عادى ينطبق على نظائره فى أوربا وأمريكا . وهو مستكمل لكل شرائط المدنية والحضارة الى آخر هذا الوصف . وذلك خاص بالرجال فيه يستقبلون ضيوفهم من مصريين وأجانب . وأما الآخر فيكاد يشبه قصور الجن والشياطين والمردة . تصل اليه من دهاليز

مستطيلة متعرجة سقوفها متدانية بحيث تضطر لان تنحنى عند الدخول فيها . وذلك الجناح من المنزل خاص « بالحريم » وقد صارت هذه الكلمة علما فى اللغة الانجليزية لن تجد لها تحولا أو تبديلا وعلى باب هذا الجناح يقف عبد أسود قوى جبار عار من الثياب إلى النصف . يقف هنالك والمدى تطل من قرابها على فخذيه كالسجان فى العصور المظلمة . يقف مشبكا ذراعيه على صدره كأنه يتحدى الداخل أيا كان أن يدخل

ولو قدر لك أن تمر بهذا الخصى من دون أن تحز رأسك فلن تأمن أن تضل الطريق لتشعب المسالك أمامك . وأما إذا قدر لك أن تصل الى قرارات هذا السجن فستجد رهطا من النساء عاريات الاذرع والنحور تكتنز ملابسهن باللحم والشحم اكتنازا . وهن جلوس على الارض أو منبطحات يلعبن ويمرحن ويضحكن وكل أولئك هن ملك لرجل واحد لاينازعه فيهن منازع

تكاد هذه تكون صورة دقيقة لما يتخيله كثيرون من الغربيين فى الاسرة المصرية . ويكاد هذا يكون محصل مايكتبون فى هذا الموضوع مع تغيير طفيف هنا وهنالك ومع مايدخلونه على هذه الصورة من المحسنات البيانية والمجملات اللفظية ولقد قابل المؤلف كثيراً من الغربيين ممن تكاد فكرتهم عن المرأة المصرية لاتتعدى هذه . وقد كان له مع كثيرين منهم فى بلادهم شأن فى هذا الموضوع وقد فات هؤلاء الناس أن هذا لاوجود له إلا فى مخيلاتهم وأن البيت المصرى كأخيه الغربى مع قليل من الفوارق التى وجدت بحكم الظروف والعادات والتوارث الاجتماعى . وفاتهم أيضا أن تعدد الزوجات فى الواقع يكاد يخسر الموقعة فى بلادنا وإن كانت له بعض النتائج التى مانزال نعانيها . ولقد صدق السر فالانتاين تشيرول إذ يقول : ان « تعدد الزوجات فى مصر نادر وهو أمر بغيض للمصريين »

ومع أن هذا هو حال معضلة تعدد الزوجات . ومع اننا موقنون انها أخذت تموت جذورها فى التربة المصرية الحديثة . وبرغم الضغط الاجتماعى والاقتصادى الذى شرع يحول مجرى ميول الناس عن هذه الناحية حتى كدنا لانسمع فى الأوساط الاجتماعية التى ننتمى اليها بحوادث كثيرة من هذا القبيل . نقول انه برغم كل هذه

العوامل ما يزال بعض الناس يغمضون عيونهم عما يترتب على هذا الامر من الاخطار الاجتماعية والاقتصادية ويسرفون فى استعمال حق اكسبتهم اياه الشريعة اشباعا لحيوانيتهم . وهذا هو منشأ تلك الظاهرة الاجتماعية الخطيرة التى هى شر ما ينتاب الحياة العائلية فى بلادنا

أما الدين نفسه فقد أعطى المرأة حق الطلاق اذا اشترطت ذلك فى عقد الزواج وبهذا الحق وباتساع دائرة تعليم المرأة المتزايد نرجو انشاء عرف جديد يحول دون اساءة استعمال هذه الاحكام الشرعية وتطبيقها تطبيقاً لا يتمشى مع روح العصر والحكمة التى وضعت لأجلها . ذلك لأن العرف يكون ابداً على استعداد لحماية المرأة عند اللزوم . ومن الجهة الاخرى تكون المرأة قد ارتقت وقوى فيها شعورها بحقوقها ومميزاتها وتأصل فى نفسها احترامها لشخصيتها فتربأ بنفسها أن يعاملها الرجل معاملة السوائم تشرى وتباع وتبدل تبعاً لنزوة الشهوات فى رأس الرجل الذى كثيراً ما يكون بجملته مطية لاحدى غرائزه تركبه متى شاءت وايان ارادت

الولد والبنت

ثم انه يوجد تباعد بين الجنسين فى بلادنا . وهذا التباعد يكاد لا يتزحزح عن مكانه . فالاولاد والبنات لا يختلطون بحرية كما يفعل ابناء الأمم المتحضرة . وليس لهم حفلات ايناس تجمعهم الى بعض ليستمتعوا فيها بالمراح البرىء . وأما اذا خطر لبعضهم أن يستمتعوا بالاجتماعات البريئة فقد ذهبت سمعتهم فى بيئتهم وأخذ الناس يتهامسون عليهم كأنهم ارتكبوا من المعاصى ما تحمر له الوجوه وتطأطىء له الرءوس فنحن نسلك بازاء الشباب فى بلادنا لا من حيث ما يرتكب هذا الشباب من الاخطاء بل من حيث ما عساهم قد يرتكبون . وحكمنا عليهم ليس على ما عملوا بالفعل بل على ما قد يعملون . أو بعبارة أخرى لا نأخذهم بغير التظنن والريبة والحال انه يجب أن يكون بعض الظن اثماً والارتياب بالبرىء جريمة تستحق غضب الارض والسماء

ومن الجهة الأخرى لا يستطيع البنين والبنات أن يتعلموا فى مدرسة واحدة أو تضمهم غرفة واحدة ويحاضرهم أستاذ واحد . وليس ما يدفعنا الى هذا سوى

زعمنا الخطأ بأن الناس جميعاً مريبون وأن الذكر والانثى عدوان ليس من عداوتهما بد وليس يصح أن يجتمعا فى مكان واحد اذا كنا نسعى وراء الفضائل . كأن الفضيلة ليست تنمو حيثما وجد رجل وامرأة . أو كأن الله الحكيم لم يكن حكيما حقاً عندما خلقهما ذكراً وانثى . أو كأنه لم يكن ليهتم بالفضائل اصلا عندما أوجدهما على أرض واحدة . حقاً أن الانسان ليعجز عن أن يفهم هذا التعنت والتعصب للفضيلة التى هى فى الواقع أشبه بفضائل المسجونين . والمسجونون ايضاً لا يستطيعون أن يسرقوا أو يقتلوا لأنهم رهينوا السجون ولأن عليهم من الرقباء من لا يناموون ، ألا بئست هذه الفضيلة التى لن توجد الا حيثما انعدمت الحرية وذهب حق الاختيار بينها وبين الرذيلة . حقاً أن الفضيلة التى ليس منها بد هى أقرب الفضائل الى الرذيلة

وكان من أثر هذا الجو الموبوء حقاً أن اقيمت الفواصل والحواجز بين الولد والبنت فصار الواحد منهما ابعد الاشياء فهما للآخر . صار الشاب عاجزاً العجز كله عن أن يجلس الى فتاة يتحدث اليها وتتحدث اليه فيتبادلان المواضيع العامة والخاصة التى تكون قد عرضت لاحدهما فى حياته . . لا يستطيع الفتى أن يزور فتاة يحبها . . كلا لا يستطيع أن يحبها أو أن يعلن عن ذلك الحب . لأن الحب حيوان ذنىء والوالدون لهذا الحيوان بالمرصاد

وعند كثيرين من المفكرين أن هذه ظاهرة خطيرة . فان هذا التصرف يحرم كلا الجنسين من علاقات اجتماعية شرعية ومفيدة . ثم انه لا يتفق ونظريتنا فى الاخلاق بأنها : « اتجاه فى الميول للاشتراك فى الحياة الاجتماعية » . وليس حياة اجتماعية احق بالاشتراك وأفعل فى تأثيرها على الاخلاق وامتع للطرفين من تلك التى يتقاسمها الجنسان . فمثل هذا التفاعل بين الجنسين ليس يفوقه شىء فى تهذيب الاخلاق وفى توجيه الميول الى الوجهات القويمة وفى تغذية الصفات الاجتماعية فى الفرد ثم فى رفع حالته المعنوية وتطهير لغته من الالفاظ القبيحة . وفضلا عن ذلك فانه ينقذ الولد من الميول الخطرة المضرة ومن امراض عقلية وأدبية كثيرة تنشأ عن بعده عن الجنس الآخر . وبخلاف ذلك كيف يتسنى للولد مع هذا التباعد أن يفهم البنت وتفهمه ويوطنان النفس على حياة مشتركة بينهما ويخلدان الى حياة

زوجية هانئة وادعة ؟ الحق أن بيئتنا هى من اردأ البيئات من هذا الوجه بالطبع فى مثل هذه الحرية شيء كثير من الخطر فهى ليست خيراً محضاً . ولكن هذه حال كل شيء آخر فليس ثمة خير محض . فكيف نصر على أن يكون لاختلاط الجنسين حكم آخر مغاير لحكم جميع الاشياء ؟ ومع ذلك فيمكن تجنب كثير من شرور هذا الاختلاط اذا ما ازداد اهتمامنا بالاختلاط وبخاصة فى البيت والمدرسة

وأخيراً فاننا نؤكد فى ضوء تحليلنا للاخلاق انه لا يمكن أن يكون هناك خلاص للجماعة المصرية من دون تكاتف الجنسين على العمل . واتحاد جهودهما وتواضعهما على النضال فى سبيل الاخلاق ويد احدهما فى يد الآخر . حقاً سيسقط الكثيرون من الجنسين فى هذا النضال الاخلاقى . ولكن الفائزين والفائزات سيكونون أصلا لجيل أقوى واثبت فى ميدان الاخلاق ممن سبقوهم . وفضلا عن ذلك فان من خطب الحسناء فلا بد وأن يفقدها المهر . فأن كنا حقاً نهيم بالاخلاق والفضائل فلا بد من دفع الثمن كما سبق أن دفعت الانسانية فى مجموعها ثمن كل شبر من التقدم . اما اذا ترددنا فى دفع هذا الثمن فليس لنا الا أن نعيش بغير اخلاق إن كان ذلك مستطاعا . يقول الأستاذ روفيوس جونز « انى اعرف بالاختبار الصعوبات الكثيرة والمسالك الوعرة التى تكتنف مثل هذا الاختلاط بين الجنسين . وحتى فى طفولتنا كان كثير من أمورنا يستدعى الانتقاد . ولكن أثر هذا الاختلاط حول موائد الطعام وفى غرف الدرس كان عاملا بالغا وفعالا فى تربيتى . وأما صداقتى الخالصة للفتيات اللواتى كان لهن اخلاق شريفة وذوق لطيف وروح طاهرة فقد رفعتنى الى مستوى من الحياة جديد »

الحالة المعنوية من سنة ١٩١٨

فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ رفع فلاح مصرى صوته مطالبا بالحرية السياسية للبلاد . وقد أخذت الاجواء تعج بذلك الصوت رغم ما تعرض له صاحبه من إخطار النفى والحرمان والسجن والاضطهاد الى أن اخفته الموت فى الثالث والعشرين من اغسطس سنة ١٩٢٧ . وحتى يد الموت لم تستطع أن تمحو اصداء

هذا الصوت التى أخذت تتجاوب ليس فقط فى الافق السياسى بل فى كل مناحى الحياة المصرية . ومع انه قد استخلص للامة بعض الميزات السياسية الا أن المناحى الادبية والمعنوية التى استطاع أن يوجه اليها ميول الامة هى فى الواقع اعود كثيراً على مصر وادوم لها على الايام

وليس من المغالاة فى شىء أن يزعم الانسان أن خير مدرسة تتلمذنا فيها فى تاريخنا الحديث هى هذه العشرة سنين التى قضيناها فى الثورة والجهاد . فالحالة المعنوية فى البلاد ارتفعت كثيرا فى هذه الفترة . ونفسية الامةواحترامها لشخصيتها وشجاعتها ومظاهرها الاجتماعية واغراضها وغاياتها ومثلها العليا . كل هذه المظاهر المعنوية وثبت وثبة كبيرة الى الامام فخرجت فيها المرأة الى الميدان فى شجاعة وروعة لتبرهن للعالم ولمصر أن لها وجوداً وأن لها امكانيات . فكل هذه الظواهر تخطت ما كان مقدراً لها كثيراً . وفى الحق أن احداً لم يكن يخطر له على بال أن فى الامة مثل هذا التدفق فى الحياة . كلا ولا زعيم الامة نفسه بماله فيها من الايمان لم يكن يظن أن مثل هذه القوة كامنة فيها

أما الانجليز فقد صعقوا فى مكانهم وأخذوا يقيمون لرغبات تلك الأمة بعض الوزن ويلتفتون اليها بعض الالتفات وأخذوا يتكلفون مداراتها ، ما يتكلفه الفرد بأزاء انسان له شخصية ونفس كبيرة نوعاً . ولم يقف تكلفهم هذا عند حد الألفاظ والمظاهر الجوفاء بل تعدى نوعاً ما الى المعانى والحقائق

ومن أروع ما اظهرته هذه الحركة هو قوة المرأة فى البيئة المصرية . فالى هذا التاريخ كانت البلاد لاتدرى لها وجوداً أو تحس لها أثراً فى أى منحى من مناحى الحياة الا من شذ منهن وليس للشذوذ حكم . كانت المرأة الى ماقبل هذه الحركة قعيدة بيتها لاتتصل بالعالم خارج الدار الا من خصائص الباب ومن خلف ستائر النوافذ . ولكنها فى هذه الحركة القت على البلاد درساً لن تنساه ويحسن أن لاتنساه . فقد برهنت على أنها عامل لم نكن نحسب له مايستحقه من الحساب

فهذا النهوض بغض النظر عن وجهته السياسية كان أهم عامل فى تغيير كثير من أركان الأخلاق فى مصر فى الحقبة الأخيرة من التاريخ . ولسنا ننكر أضراره على

الأخلاق أيضا اذ انه لم يكن خيراً محضاً كما قدمنا . الا أننا ننوى أن نغض الطرف عن ذلك فى هذا المجال . وكل مايهمنا هو أن المصريين قد أخذوا يتحركون فلم يعودوا قانعين بما هم فيه وخيراً يفعلون . فليس للقناعة فى هذه الناحية من معنى سوى الركود والجمود فالموت

خاتمة

هذه صورة مصغرة للبيئة المصرية تكاد تكون مختلة لاقتضابها . ثم هذه هى العوامل الاجتماعية والأدبية التى ذهبت فى تكوين هذه البيئة . وهذا أيضاً ماندعو اليه رغبة فى بناء أخلاق الناشئة المصرية . واننا نشعر أن هذه الصورة قد رسمت على عجل . وانها مختصرة جداً ولكننا نخال أنها دقيقة وموضوعية (objective) بقدر ماسمحت لنا به الظروف التى نحن فيها مقيمون . والكاتب لاينسى أنه مصرى وأنه قد يتأثر عن غير عمد بحبه لبلاده وتلهفه على أنها تأخذ مكانها تحت الشمس . ولقد حاول المؤلف أن يمنع طغيان المشاعر والعواطف على العقل والفكر فى هذا الباب . وسواء أكان قد أفلح فى هذا أم لم يفلح فهذا مايترك الحكم فيه للقراء